الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

إبراهيم[١] بن العباس بن محمد الصولي

كان جده صول حاكماً لجرجان مع أخيه فيروز، وكان تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبهان بالفرس، ودخل صول الإسلام على يد يزيد بن المهلب وإلى خراسان للحجاج، واصبح من خاصته، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في مطالع القرن الثاني الهجري حارب تحت لوائه حتى قتل معه في موقعة العقر بالقرب من الكوفة. وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، ونشأ له ابنه العباس في ظلال تلك الدولة، ورزق ولدين: عبد الله وإبراهيم، وكان عبد الله أكبر سناً من أخيه. وقد ولد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور، وكأنه هو وأخاه تأدباً عليه في باكورة حياتهما، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور في عصر المأمون. ومن المؤكد أن إبراهيم لزم– على عادة لداته– حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يتقن العربية، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة. وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة في دواوين الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين وزير المأمون، حين كانا لا يزالان في مرو قبل تحول المأمون إلى بغداد. ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما، فرحل إليهما، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا. ويمدح إبراهيم ولي العهد الجديد، ويهبه عشر آلاف درهم من دراهم كانت ضربت باسمه، ويقال

---

[١] أنظر في ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ٤٣/١٠ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ١١٧/٦ ومعجم الأدباء لياقوت ٦٤/١ ومروج الذهب ٢٣/٤ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان في إبراهيم وتاريخ الطبري في ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمني في كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه، وأبقي بعضها لكفنه فيما بعد وجهازه إلى قبره[١]. وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه، ومن حينئذ ظل يعمل في الدواوين إلى أن توفى سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع للمتوكل، ويقول صاحب الفهرست: "كان إليه ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء[٢]".

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرت عليه بلاء عظيماً، ذلك أن ابن الزيات الوزير– وكان صديقاً له– ولاه على معونة الأهواز وخراجها، ثم تنكر له، فوجه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه، فتحامل عليه تحاملاً شديداً، وقال إن أموالاً كثيرة لم تؤد إلى بيت الخراج، وغضب ابن الزيات، وأمر بعزله واعتقاله في ولايته. وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يبل فيها صديقه ابن الزيات وحده، بل بلا فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة، إذ قلبت له منهم جماعة ظهر المجن مثل أحمد بن المدبر، الذي كان يوغر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عماله واستخراج الأموال منهم، مما جعله يزهد فيما بعد في صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سئل في ذلك قال: "ما مثل الإخوان إلا كمثل النار قليلا مقنع وكثيرها محرق أو قليلها متاع وكثيرها بوار". ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة في الصداقة والصديق، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها. ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض في النكاية به، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه، ومن أطراف ما كتب له هذه الرسالة[٣]:

"كتبت إليك وقد بلغت المدية المحز، وعدت الأيام بك على بعد عدوي بك عليها، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكف عند أذاها، فصرت على أضر منها، وكف الصديق عن نصرتي وبادر إلى العدو تقرباً إليك. وكتب تحت ذلك:

أخ بيني وبين الدهـ ـر صاحب أينا غلبا

صديقي ما استقام فإن نبا دهر على نبا

وثبت على الزمان به فعاد به وقد وثبا

ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخاً حدبا"

---

(١) الأغاني ٥٢/١٠.

(٢) الفهرست ص ١٨٢.

(٣) الأغاني ٥٦/١٠ ومعجم الأدباء ١٧٠/١.

والرسالة توضح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر، ويقول المسعودي: "كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه"[١]. ويقول ابن الجراح في كتابه الورقة: "أشعر نظرائه الكتاب وأرقهم لساناً، وأشعاره قصار ثلاث أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع"[٢] ويقول أبو الفرج الأصبهاني: "كان يقول الشعر ثم يختاره، ويسقط رذله، ثم يسقط الوسط، ثم يسقط ما سبق إليه، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير، وربما لم يدع منها إلا بيتاً أو بيتين[٣]". وشعره مقطوعات حقاً، ولكنها مقطوعات ترقى إلى مرتبة رفيعة في البلاغة، مثلها مثل هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها لابن الزيات راجياً أن يخلصه من محنته، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبي مصفى، وكل عبارة قد أحكمت، أحكمتها يد صناع، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها، لقد كانت ينتصر به عليها، فإذا هي تقهره به، وما أدق قوله له في رسالة أخرى[٤]:

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمان

فناصره أصبح قاهره. ويتوالى الطباق في الرسالة، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو. وظل ابن الزيات لا يعفو عنه، حتى بلغ منه كل مكروه، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه أبو الجهم، فأمر ابن الزيات برد حريته إليه وانتظامه في حاشيته وبلاطه مصوناً، فبسط لسانه في غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذاماً هاجياً. وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذي جعل المتوكل يقر به منذ أول عهده بالخلافة، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة، فلم يكد يتقلد الخلافة حتى صادر أمواله، وعذبه في تنور مليء بمسامير من الحديث حتى مات.

وأصبح إبراهيم بن العباس حظياً عند المتوكل، فقلده ديوان رسائله ودواوين مختلفة، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل لكتب التي تصدر عنه، سواء أكانت منشورات أم عهوداً لأولياء العهد أم فتوحاً أم تهنئات بالأعياد أم تعازي باسم الخليفة، وأحياناً ينص الطبري أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه، وأحياناً لا ينص. ومن أوائل ما كتب له المنشور الموجه إلى عماله

---

[١] مروج الذهب ٢٣/٤

[٢] كتاب الورقة ص ١٣٦.

[٣] الأغاني ٤٣/١٠.

[٤] الأغاني ٥٧/١٠ ومعجم الأدباء /١٧١

في الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطيالسة والزنانير، مما عرضنا له في غير هذا الموضع، وهو يستهله على هذه الشاكلة[١]:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزته التي لا تحاول وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام، فرضيه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وايد به أولياءه، وكنفه بالبر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مبرأ من الشبهات، معصوماً من الآفات، محبواً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها، وأكرم أهله بما أحل لهم من حلاله، وحرم عليهم من حرامه، وبين لهم من شرائعه وأحكامه، وحد لهم من حدوده ومناهجه، وأعد لهم من سعة جزائه وثوابه، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حض عليه وفيه ووعظ: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)".

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام. فهو لا يكتب ما يرد على ذهنه عفواً، بل هو يفكر فيما يكتب، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة محدثاً بينها ضروباً من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطعاً، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذي يوازن بين العبارات دون أن يحيلها سجعاً وتنميقاً خالصين. وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل في شمالي أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل، وهزمته هزيمة ساحقة، وأخذ أسيراً، فضربت عنقه وصلبت جثته وحمل رأسه إلى سامراء. ولإبراهيم بن العباس رسالة في هذا الفتح نوه بها القدماء، وفيها يقول[٢]:

"قسم الله عدوه أقساماً ثلاثة: روحاً معجلة إلى عذاب الله، وجثة منصوبة لأولياء الله، ورأساً منقولاً إلى دار خلافة الله، استنزلوه من معقل إلى عقال (أغلال) وبدلوه آجالاً من آمال، وقديماً غذت المعصية بناءا، فحلبت عليهم من دارها (لبنها) مرضعة، وبسطت لهم من أمانيها مطعمة، وركبت بهم مخاطرها موضعة (مسرعة) حتى إذا وثقوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رضاع وآن فطام، سقتهم سماً، فجرت مجاري ألبانها منها دماً، وأعقبتهم من حلو غذائها مراً، ونقلتهم من عز إلى ذل، ومن فرحة على ترحة، ومن مسرة إلى حسرة، قتلاً وأسراً، وغلبة وقسراً، وقل من أوضع (أسرع) في الفتنة مرهجاً (مثيراً) واقتحم لهبها مؤججاً، إلا استلحمته (تبعته) آخذة بمخنقة

---

[١] طبري ١٧٢/٩.

[٢] مروج الذهب ٢٥/٤.

(بحلقه) وموهنة بالحق كيده حتى جعلته لعاجله جزراً، ولآجله حطباً، وللحق موعظة، وعن الباطل مزجرة، أولئك لهم خزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظلام للعبيد".

وبلاغة الصولي التي اشتهر بها واضحة في هذه الرسالة، فهو يعني بكلامه محملاً له معاني غزيرة، ومطرفاً فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة. وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعاني تنتهي إلى الطباق، فقد كان إسحق بن إسماعيل في معقل فأصبح في عقال، وكان في آمال وحياة رغدة فاصبح في آجال وموت رهيب. ويضيف إلى ذلك الصور، فقد أرضعتهم المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم في الأماني العذاب، وأسرعت بهم مخاطرها. وكل تلك صور متلاصقة. ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال، إذ يقول. انقضى رضاع وآن فطام. والكناية واضحة. وعاد إلى التصوير، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء. ويعود إلى الطباق، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع السرة. ثم يعود ثالثة إلى التصوير، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب، وتعم حتى لتأخذ بمخنق كل شخص، وحتى تجعله في دنياه جزراً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع، أما في الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار. ويختم الفقرة بآي من القرآن. والطباق اللون البديع العقلي الذي كان يروع العباسيين يكثر فيها، كما يكثر التصوير، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التي كانت تخلب معاصريه، فهو يبدؤها بالتقسيم، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح في مثل: معقل وعقال وآجال وآمال، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل. ومضى يوغل في الموازنة بين عباراته، وإذا هو لا يكتفي بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية، إذ يطلب ازدياداً في التلاؤم وفي الجرس، فليس يكفي أن تتقابل العبارات وتتوازن، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرناناتها، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه. واحتفظت كتب ا؟لأدب بتحميده لهذه الرسالة، وهو يمضي فيه على هذا النحو[1]:

"الحمد لله معز الحق ومديله (ناصره) وقامع الباطل ومزيله، الطالب فلا يفوته من طلب، والغالب فلا يعجزه من غلب ن مؤيد خليفته وعبده، وناصر أوليائه وحزبه، الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله، حمداً يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوابغ نعمائه".

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة في الرسالة، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يلذ كلامه الأسماع والآذان، كما يلذ العقول والأذهان، بملأماته بين الكلمة والكلمة في الجرس، وبما يستخدم من طباقات وجلسات وتصويرات مختلفة. ولم تصلنا رسالة

---

[1] جمهرة رسائل العرب ١٧٤/٤.

الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولي المتوكل الخلافة، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صدرها على هذا النحو[١]:

"أما بعد فالحمد لله الذي جلت نعمه، وتظاهرت مننه، وتتابعت أياديه، وعم إحسانه، إلى كل شيء وخالقه، وبارئه ومصوره، والكائن قبله، والباقي بعده، كما قال في كتابه: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) العالي في مشيئته والقاهر فوق عباده المتعالي عن شبه خلقه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) خلق العباد بقدرته، وهداهم برحمته، وأوضح لهم السبيل إلى معرفته، بما نصب لهم من دلائله، وأراهم من عبره، وصرفهم فيه من صنعه، كما قال جل جلاله: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ). وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم، والهيئة التي هيأها لهم، ليقع الأمر والنهي عليهم، فلا يكلفهم فوق طاقتهم، ولا يجشمهم ما يقصر عنه وسعهم، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم، ورحمة بهم، ليؤمنوا به ويبعدوه، فيستحقوا به رحمته ورضوانه والخلود في النعيم المقيم والظل المديد والعيش الدائم، كما قال تعالى ذكره: (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ). وكان من نظره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله، يدعونهم إلى طاعته، ويبينون لهم هداه، ويوضحون لهم سبيله، ويهدونهم إلى رحمته، ويعدونهم ثوابه، وينذرونهم عقابه، ويبسطون لهم توبته، ويحذرونهم سخطه، ويبينون لهم سننه وشرائعه، ويكشفون لهم مواعظه، ويعلمونهم كتابه وحكمته، كما قال تبارك الله وتعالى: (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة، والأعلام البينة، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم، واقام بها برهانهم، وأوضح بها دليلهم، وأثابهم عمل سواهم ليكون ادعى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم، وأوكد للحجة على من أبي ذلك منهم".

---

[١] جمهرة رسائل العرب ١٧٢/٤.

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما: نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب في الهدى والرشاد، ونعمه أيضاً وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين. ونراه في مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه، وهو أصل من الأُصول الأساسية عند المعتزلة، فهو منزه عن التحيز في جوهر وعرض، لا يدركه حس ولا يحيط به خيال، منزه عن كل شبه بالآدميين في خلقهم وصفاتهم. وليس من الضروري أن يكون من المعتزلة، فيكفي أن يكون على صلة بمباحثهم، وهو ما نريد إثباته، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالي كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله في صفاته وذاته وإبداعه للكون وللإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته. وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل في النظام الكوني وما بث الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة. ويصور القرآن كما في آيات خلق الإنسان التي اقتبسها الصولي كيف أنشأ الله الخلق إنشاء بديعاً وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكمالاتهم، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر في نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى. ويبث الصولي هذه الفكرة في الشطر الأول من تحميده. ويخرج منها إلى الفكرة التي طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير، إذ لم يخلقهم عبثاً ولا دون غاية سامية، فقد خلقهم ليتبعوا هداه، وليقع الأمر والنهي عليهم، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهدى، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم في الآخرة من ثواب وعقاب، ومبينين لهم السنن والشرائع التي تكفل لهم السعادة في الدارين، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب إلا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم. وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعاني في ألفاظ جزلة رصينة، يجري فيها التقطيع الصوتي الذي ذكرناه آنفاً، وإن لم يبلغ مداه في الرسالة السابقة، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التي شاعت فيها، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعاني التي أثارها في تحميده والتي جعلته يتمثل ببعض آي الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور غلا ما جاء في النادر وعفو الخاطر. ومن تحميداته في أحد الفتوح[1]:

"الحمد لله الغالب ذي القدرة، والقاهر ذي العزة، الذي لم يقابل بالحق باطلاً في موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجنده، وجعل الباطل بهم فلا (هزيماً) منكوباً، ودميضاً (باطلاً) هوقاً إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرقة ما جمع، ومبترة (مستأصلة) ما أعد، وقائده بأشياعه إلى مصرع الظالمين، حتى يكون الحق الطالب الأعز والباطل المطلوب الأذل، وأولياء الحق الأعلين يداً وأيداً (قوة) وأشياع الضلال الأخسرين أعمالاً وكيداً، قضاء الله وسنته، وعادة الله وإرادته، في الفئة المنصورة أن تعز فلا ترام، وأن يمكن لها

---

[1] جمهرة رسائل العرب ١٧٦/٤.

في الأرض كما مكن للذين من قبلها، وفي الفئة الناكبة عنه أن تذل، فتكون كلمتها السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم".

ونحس قدرته على اصطفاء الكلمات في هذا التحميد، ولا نصل إلى قوله: "وجعل الباطل بهم فلا منكوباً د حيضا زهوقا"، حتى يتجسد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يعني بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله: "يكون الحق الطالب الأعز، والباطل المطلوب الأذل، وأولياء الحق الأعلين يداً وأيداً، وأشياع الضلال الأخسرين أعمالاً وكيداً" وكأن العبارات توضح في صفوف لا في سطور، لتأخذ كل كلمة بيد أختها، وكأننا في مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها فكل كلمة توش أن تمسك بيد أختها في العبارة التالية لعبارتها. فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل. وبالمثل تتلاقى في العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يداً وكلمة الأخسرين أعمالاً. فالكلمات في العبارات تتجاذب تجاذباً شديداً، في الصوت والجرس والأداء وفي المعاني المتقابلة المتناقضة، فقد عم فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعاً من صلة القربى ووشائج الرحم. وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة "يداً" بجانب كلمة "أيداً" طلباً للتلاؤم في الجرس الذي قد يخفى أحياناً، وأحياناً يتضح وضوح الشمس في كبد السماء. وفي ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والجنان. وينهي الرسالة باقتباس من القرآن الكريم، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه المونقة كقوله في هذا التحميد: "الأخسرين أعمالاً". ودائماً نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المطنبة والأخرى المجملة الموجزة، حتى لكأنما يصوغ أمثالاً كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. ومن خير ما يصور ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم، والرسالة تمضي على هذا النمط[١]:

"أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه، مما قوم به من أورد (عوج) وعدل به من زيغ، ولم به من منتشر، استعمال ثلاث، يقدم بعضهن على بعض، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التي لا يقع حسم الداء بغيرها:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه"

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فملأت نفسه إعجاباً، وأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان- وكان حاضراً- أما تسمع ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلة

---

[١] معجم الدباء ١٨٧/١.

خبأها الله لك، وذخيرة ذخرها على دولتك. ويقال إن البيت في هذه الرسالة أول شعر نفذ في كتاب عن الخلفاء العباسيين. والمتوكل إنما أعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدى الغرض الذي كانت تكتب فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أي تقصير ودون أي إخلال، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد. وكأننا لا نقرأ صيغاً متعاقبة في رسالة، وإنما نقرأ حكماً وأمثالاً، لدقة المعاني ودقة أدائها وصياغتها، وقد أجرى فيها ضروباً من التقطيعات الصوتية، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح في أوائلها، ولم يلبث أن أضاف فيها سجعة طريفة، كما أضاف صورة بديعة إذ عبر عن الحرب بحسم الداء. والكتاب بحق يصور مراناً طويلاً على استخدام الكلام ووضعه في مواضعه، بل قل إنه يصور خبرة طويلة امتدت عشرات السنين. ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قصراً كتب بها في شفاعة إلى أحد يزكى رجلاً يستحق العناية به[١]:

"فلان ممن يزكو (ينمو) شكره، ويحسن ذكره، ويعنيني أمره، والصنيعة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها:

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجي إصابة شكر لم يضع معه أجر"

والرسالة موجزة ولكنها تؤدي الغرض منها أداء واضحاً، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع، وبلغ من شدة تدقيقه في المعنى أن أخرج البيت الذي ضمنه الرسالة مخرج الأمثال. وكان كتاب الرسائل يكتبون في عيدي الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكروهم واجبهم، من ذلك قوله في رسالة[٢]:

"أما بعد فإن لكل فرع أصلاً، عنه مورده ومستنبطه، وغليه مرجعه وموئله، ومتى رجع من أصول الأمور إلى تأثلها (تأصلها) وتمكنها، رجع من فروعها إلى استتبابها واستقامتها. وأفضل ما تدبره أمور دين الله وخلافته، وحقوق الله وعباده. فكان لأصل وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون الدهماء (العامة) وصلاح البيضة (الولاية) وأمن السرب (الجماعة) وتظاهر النعم فيما قرب وبعد، ودنا ونأى ... فافعل ذاك معاناً على أمرك".

والترادف والازدواج واضحان في السطور الأولى من الرسالة، فمورده يليها مستنبطة بنفس المعنى، وبالمثل مرجعه تليها موئلة، وتأثلها يليها تمكنها، واستتبابها يليها استقامتها. وفي ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن، وفي كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافة فقهية، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره في أربعة: سكون الناس

---

[١] الأغاني ٥٣/١٠ ومعجم الأدباء ١٧٨/١.

[٢] جمهرة رسائل العرب ١٨٩/٤.

دون إحداث أي فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم، وصلاح الولاية في شئونها السياسية والاقتصادية والإدارية، وأمن الناس على نفوسهم، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يعانون البؤس والضنك في الحياة. ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبد الله واليه على خراسان، وفيها يقول[١]:

"أما بعد فإن أحق من أرضى الله في نعمته بشكره وفي مصائبه بالتسليم له، من فهم ما في شكر النعم من استدعاء تمامها، وما في التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه، وقد جعل الله محلك من الحالتين جميعاً محل المتقدم بنيته ومعرفته. والله يمتع أمير المؤمنين فيك بصالح قسمه فيمن مضى، والجاري على من بقى ويبقى، حتى يؤدي الفناء الذي لا بقاء معه إلى البقاء الذي لا فناء بعده. وأمير المؤمنين يعظك بالله، وهو أحق من وعظ به، ويرشدك من إيثار الله لما ندبك له منه ... فقدم حق الله عليك بطاعتك لما فيما أمرك به، واتق الله في مواقع أقداره بك، تقتض بذلك من ثواب الله أفضل عوض الصالحين".

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعاني، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستلامه لما ينزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه. والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذي لا بقاء معه، والذي ينتقل به إلى البقاء الذي لا فناء بعده. ويقول له: قدم حق الله عليك بالطاقة له وبالرضا بقدره، وبذلك تستحق ثوابه، هو خير عوض للراضين المقربين. وفي كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع، ويبدو أنه كان يستخدمه أحياناً في جوانب من رسائله مسهباً فيه، على نحو ما نرى في القطعة التالية التي احتفظ بها ياقوت في معجم الأدباء إذ يقول:

"ووجد أعداء الله زخرف باطلهم، وتمويه كذبهم سراباً بقيعة (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وكوميض برق عرض فأسرع، ولمع فأطمع، حتى إذا انحسرت (انكشفت) مغاربه، وتشعبت مولية مذاهبه، وأيقن راجيه وطالبه، أن لا ملاذ ولا زور، ولا مورد ولا صدر (صدور) ولا من الحرب مفر، هنالك ظهرت عواقب الحق منجية، وخواتم الباطل مردية، سنة الله فيما أزاله وأداله (هزمه) (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

) ولا عن قضائه تحويلا".

والقطعة سجع خالص، وتحمل اقتباسات من آي القرآن، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف، وتجري فيها الخصائص التي ذكرنا لإبراهيم بن العباس، ففيها الازدواج والتكرار في مثل: "زخرف

---

[١] جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢.

باطلهم وتمويه كذبهم"، ومثل "أزاله وأداله"، وفي الكلمة الأخيرة جناس ناقص. وتلقانا بعض طباقات مثل: "ولا مورد ولا صدر" ومثل "عواقب الحق وخواتم الباطل" ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب وكأنه كان في نثره مثل شعره وما وصفه به أب الفرج، كما مر بنا، يكتب ثم يختار، وما يزال يصلح ويسقط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة. وله توقيعات بديعة تدور في الكتب الأدبية، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصاً ويمدح آخر، فوقع في الرسالة[١]:

"إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الواجب على رغبة، وإنقاد المسيء للحق رهبة".

والسجع واضح في التوقيع، ولكن المهم طرافة التقسيم. ويقول المسعودي: "ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت، وفصول حسان م كلامه قد جمعت". ويروي عنه أنه كان يقول: "مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم في الارتقاء[٢]". ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل، وفي الحق أنه كان كاتباً بليغاً بلاغة رائعة.

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٤/٤٦١.

[٢] مروج الذهب ٤/٢٦.

٢

الجاحظ[١]

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حد قتيه وجحوظهما، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر. وقيل إنه من كنانة، وقيل بل هو كناني ولاء وإن جده فزارة كان عبداً أسود جمالاً لعمرو بن قلع الكناني. واختلف في السنة التي ولد فيها، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة، والمظنون أنه ولد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة، ويروي عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتزم): "أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف، وأعظمها ست وتسعون سنة[٢]". وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه، وفي مطالع الجزء الثاني من كتابه "الحيوان" ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لداته من الصبية، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار، حتى إذا شب عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها، وكانوا يحاضرون في كل فنم، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس. وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق. وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة بعض ما ينشدونه من الأشعار، وكان المربد سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ العصر الأموي. وفي أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان[٣] أحمد نهيرات البصرة، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه. ويروي أن أمه ضاقت بانهماكه في الدرس والقراءة، فطلب منها يوماً طعاماً، فجاءته بطبق ملئ بكراريس أودعها البيت، وقالت له: ليس

---

[١] أنظر في الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ٢١٢/١٢ ومروج الذهب ١٠٩/٤ ومعجم الأدباء ٧٤/١٦ ونزهة الألباء لابن الأنباري وابن خلكان في عمرو ومرآة الجنان لليافعي ١٥٦/٢ وأمالي المرتضى ١٩٤/١ ولسان الميزان ٣٥٥/٤ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٢٤٧/٣ وضحى الإسلام لأحمد أمين ٣٨٦/١ وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٥٤ والجاحظ لطه الحاجري (طبع دار المعارف) والجاحظ لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر).

[٢] تاريخ بغداد ٢١٩/١٢ ومعجم الأدباء ١١٣/١٦.

[٣] معجم الأدباء ٧٤/١٦.

عندي من طعام سوى هذه الكراريس، تريد أن تنبهه إلى التكسب. فذهب إلى الجامع مغتماً، ولقيه مويس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس، فسأله ما شأنك ؟ فحدثه بحديث أمه، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً، فأخذها فرحاً، ودخل السوق، واشترى الدقيق وحمله الحمالون إلى داره، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التي قدمتها إلى[١]. وكأن مويس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء.

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمربد وما كان يأخذه عن جلة العلماء أمثال الأصمعي وأبي زيد والأخفش وأبي عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبي الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظام من المعتزلة، ولا عند كبار الفقهاء والمحدثين في عصره، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة، عن طريق المكتبات، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلف أو يترجم في البصرة أو في بغداد تتكاثر نسخه في أيدي الوراقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب. ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس، وبهذه الثقافة العلمية التي حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع على النحو وقوانينه النهائية، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزل أصحاب الفكر الحر في الدراسات الدينية، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقررة معروفة، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا في بغداد[٢] بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون، فقد كانت تحت بصره في دكاكين الوراقين، ولم يكن يكتفي بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[٣]. ويقول أبو هفان: "لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان[٤]". وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم في ذهنه، ويظل في ذاكرته آماداً متطاولة. ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان، وهي نحو مائة صفحة في تمجيد الكتب، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التي صنفها قبل الحيوان.

وكان من أهم ما شغف به الاعتزال، وقد مضى يلزم أستاذته في عصره، ويستوعب كل ما كان عندهم، بادئاً بأن الهذيل العلاف، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقته، وكان من أهم من لزمهم

---

[١] المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠.

[٢] الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفي مواض متفرقة .

[٣] الفهرست ص ١٧٥.

[٤] معجم الأدباء ٧٥/١٦.

النظام[١]، وكان لا يباري في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة، فتلقن ذلك عنه، وسنراه يطبقه في كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة، وفيه يقول: "لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، وأقول لولا أصحاب إبراهيم، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة"[٢] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة، وكأنه هو الذي دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع. ويبدو أنه هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه في كتابه "الحيوان" يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية. وهداه طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه، ويعرض الخياط المعتزلي في كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلاً[٣]. ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته ويبدو أنه كان يلقي كثيراً من الإهمال في أول مرة، حتى كان يضطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتابي أو سلم صاحب بيت الحكمة، حينئذ كان الكتاب يروج، ويأتي الناس لروايته[٤] عنه. وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله، وفي مقدمتهم بشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس، حتى إذا شغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مرو إلى بغداد أشار عليه ثمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حد له بما كتب[٥]، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة، ونظن ظناً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ،ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[٦]، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية، مكتفياً- فيما يبدو- براتبه. وربما كان قبحه الذي عرف به هو السبب الحقيقي في أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لا تلائمه. وفي بغداد طاب له

---

[١] معجم الأدباء ٧٥/١٦.

[٢] الحيوان ٢٠٦/٤.

[٣] الانتصار ص ١٠٣ وانظر في آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧٥.

[٤] مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص١٠٨.

[٥] البيان والتبيين ٢٢٣/٣.

[٦] معجم الأدباء ٧٨/١٦.

المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية في النوادي والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة. وتتحول الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم، ويتحول معها الجاحظ، ويتخذ سامراء دار مقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور، وفيها يتعرف على كثير من الأدباء، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبي العيناء والجماز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء، وجعلته صلته بابن الزيات يقف في صفه ضد خصمه أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة، ولا يلبث المعتصم أن يتوفى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل، وكان يضطغن على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذبه في تنور محمى بالنار حتى يموت. ويقرب المتوكل في هذه الأثناء ابن أبي دؤاد، ويرسل في طلب الجاحظ، ويأتونه به مقيداً، ويأخذ في تعنيفه، ويقول له الجاحظ: "خفض عليك- أيدك الله- فو الله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن من أن أحسن فتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني". وعفا عنه ابن أبي دؤاد[١]. ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر المتوكل أن يصنف رسالة في الرد على النصارى[٢]، ويغلب أن يكون هذا التكليف في سنة ٢٣٥، وهي السنة التي أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل لذمة بلبس الطيالس كما مر بنا في غير هذا الموضع. وكأن مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجري حتى هذا العام. ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشة كما كانت تكفي كثيرين من العلماء والشعراء، وكان حين يهدي الوزراء والقواد وكبار الكتاب بعض كتبه يهدونه بعض أموالهم، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدمه إليه،وبالمثل صنع ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولي حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل. وكان قليل من المال يسد حاجته، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد، إنما هو وجاريتان، هذا كل ما هناك. ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألم به مبكراً ولكنه لم يقعده عن الحركة ولا عن الكتابة، فقد ألف كتاب الحيوان الذي قدمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[٣]، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية. وأصابه النقرس وطال به العمر، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان في زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ. وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية

---

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦.

(٢) معجم الأدباء ٩٩/١٦ وما بعدها ونراه في كتابه إليه يشير إلى راتب شهري مطوم كان يجري على الجاحظ.

(٣) ذيل زهر الآداب للحصري ص ١٦٥.

حياته. ويقول المبرد: "دخلت على الجاحظ في آخر أيامه. فقلت له: كيف أنت ؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذاب بقربه لآلمه". ووجه إليه المتوكل في سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه، فقال: "وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذي شق مائل، ولعاب سائل، وعقل حائل[١]؟!".

ويعد الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي، وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التي نهض بها لمعتزلة، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعاني، وكأنه يسمد من مخازن عقلية لا تنفد، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامي في كتاباته[٢]، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل، وكأنما يأخذ من نهر لا ينب، نهر لا يزال يجلب منه الحجة ونقيضها، تسعه في ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة: "إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً" بما يستنبطه من خفيات المعاني وما يثيره من دقائق الفكر في الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذي عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومكدين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين في الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب، وكأنك تدور في كتاباته بمتحف لا تزال تفجؤك فيه الطرف والصور. وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية في البصرة أو في بغداد أو في سامراء، ومرة يطوف بك في ردهات الفكر العميق أو في بعض آي القرآن، ومرة يطوف بك في شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجواري، وهو في هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس.

وبجانب هذا الفكر المنطلق في البحث وفي الوصف وفي الرواية الذي ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما في مدن العراق الكبيرة من صور الحياة في أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق. ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أي شيء حتى العورات أحياناً، ويعلن ذلك في صراحة صريحة دون أي مواربة

---

[١] أنظر في الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦/١١٣.

[٢] كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشة وفسكي) ص٥٣.

إذ يقول: "وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع. ولم يكشف قد صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة[١]."

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح، حتى ليقول المسعودي: "كتب الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعة، وكان المسعودي متشيعاً) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة[٢]" ويصور ذل الجاحظ نفسه فيقول: "وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات تأن يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل[٣]". وخص لهزل والنوادر بكتابه المشهور "البخلاء" وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء في عصره. وبني رسالة له في هجاء أحمد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب، وهي رسالة التربيع والتدوير، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً، فجعل يصفه في رسالته وصفاً مضحكاً، ثم حوله إلى دراسة واسعة في الجمال، وهل يكون في القصر أو يكون في الطول أو يكون في النحافة أو يكون في الامتلاء أو يكون في التربيع والتدوير، وهي تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح: "ولو استعمل الناس الرصانة في كل حال والحد في كل مقال ... لكن السفه الصراح خيراً لهم، والباطل محضاً أرد عليهم ... ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه[٤]".

وجرت رغبة الجاحظ في أن يتخلل كتاباته بالنوادر وما يطرف القارئ رغبة مماثلة في أن يورد في تضاعيف كتاباته بعض آي القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم، مما أشاع في رسائله وكتبه كثرة الاستطراد، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهباً في كتابته، حتى لا يمل القارئ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه، وهو يعلن ذلك مراراً في كتبه، كقوله في كتاب الحيوان: "قد عزمت- والله الموفق- أنى أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من

---

[١] الحيوان ٣/٤٥.

[٢] مروج الذهب ٤/١٠٩.

[٣] رسالة في النساء مجموعة رسائل الجاحظ . نشر السندوبي ص ٢٦٦.

[٤] رسالة التربيع والتدوير (طبعة شارب بلات بدمشق) ص٥٣.

ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أو رثت الغفلة[١]". ويقول في موضع آخر: "ومتى خرج (القارئ) من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى كيم عقلية ومقاييس سداد ... حتى يفضي إلى مزح وفكاهة، وغلى سخف وخرانة[٢]".

ودائماً يعني الجاحظ بصياغته، بادئاً موادها من الألفاظ، فهي تارة ألفاظ جزلة رصينة، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذي تؤديه، وهو يصيح في البيان والتبيين وغيره من كتاباته: التلاؤم التلاؤم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو بعبارة أخرى لسامعيه، يقول: "وكما لا ينبغي أ، يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً غلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوق[٣]". ودائماً يبدي ويعيد في أن الأسلوب ينبغي أن يكون وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة، وأن تشف الألفاظ عن المعاني حتى تلذ الأسماع والقلوب، يقول: "أحسن الكلام ما كان قليلة يغنيك عن كثيرة ومعناه في ظاهر لفظه ... وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً .. صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة[٤]". وأكثر من الحديث في البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات، وهو بحق الذي أعد في قوة لشيوع أسلوب جديد في الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق في صفوف متقابلة، دون أ، تتحد نهاياتها على نحو ما هو معروف في السجع. هي تتقابل وتتعادل صوتياً ولكن دون أ تحقق التوازن الصوتي المألوف في السجع،ومع ذلك تحقق ضروباً من الإيقاع، فالكلمات تتوازن وتتعادل، وكأن كل كلمة في عبارة تقابلها كلمة في العبارة التالية على شاكلة قوله: "لا أعلم قريناً أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة، ولا أخف مئونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة، ولا أخف مئونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجتني، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبان من كتاب، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه وإمكان وجوده،

---

[١] الحيوان (طبعة الحلبي) ٣/٧.

[٢] الحيوان ١/٩٣.

[٣] البيان والتبيين ١/١٤٤.

[٤] البيان والتبيين ١/٨٣.

يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمع لك الكتاب[١]". وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذي يحف به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنف الكتب الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات، دون أن تتأبى عليه كلمة أو صيغة، فقد أصبحت اللغة مرنة في لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد، لغة شفافة يشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفي الذي يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره.

ودائماً تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ، إذ يعني دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرائها، كما يعني بسريان روح الدعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية على نادرة إلى بيان سمة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يحصى من المعارف وأحوال مجتمعه. وبذلك ينفرد عن أدباء عصره أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن. ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعاني والأفكار خائضاً بك في أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو في المعرفة أو في الاستطاعة، مع ذكر أطراف مما يجري فيه الناس ويخوضون فيه، ومع التنقل في كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات.

ولسنا بصدد البحث العام في الجاحظ، إنما نريد أن نقف قليلاً عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصي ونوادر، ومر بنا أنه طبع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار في مدح الشيء وذمه، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبد في الكلب والديك أيهما أفضل، إذ غلت نحو مجلد ونصف من كتاب لحيوان، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره في الكلب والديك، يقول: "إنما نتنظر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودل بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يحب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز وجل عندهما". وهو يردد ذلك في جوانب من المناظرة ليبين الغاية

---

[١] الحيوان ٤٢/١ .

منها والغرض. وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله النظام ومعبد في ذمه ومده، ولخص ذلك يقول[١]:

"باب ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلام وتعداد أصنافها ومعايبها ومثالبها من لؤمها وجبنها، وضعفها وشرهها، وغدرها وبذائها، وجهلها وتسرعها، ونتنها وقذرها، وما جاء في الآثار من النهى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطردها، ومن كثرة جناياتها وقلة ودها، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها، وقبحها وقبح ملازمتها، ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها، وتقدر المسلمين من دنوها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخلق المركب، والحيوان الملفق: كالبغل في الدواب وكالراعي في الحمام، وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا إنسية ولا جنية ،وأنها من الجن دون الجن، وأنها مطايا الجن ونوع من المسخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وأنها يعتريها الكلب من أكل لحوم الناس. فإذا حكينا ذلك حكينا قول من عدد محاسنها، وصنف مناقبها، وأخذنا في ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إياها، واستهتارهم بها، وذكر كسبها وحراستها، ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة، والفطن العجيبة، والحس اللطيف، والأدب المحمود. وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبرها على الجفاء، واحتمالها للجوع، وذكر ذمامها وشدة منعها معاقد الذمار منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها، وبعد أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها ... مع اختلاف طبائع ذكورها ... وترددها في أصناف السباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لغتها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومهنها وخدمتها، وجدها ولعبها في جميع أمورها، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتب المنزلة، والأمثال السائرة، وعن تجربة الناس لها وفراستهم فيها، وما عاينوا منها، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها، وعدد جرائها، ومدة حملها وعن سماتها وشياتها، وع دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقن منها، وعن أعراقها والخارجي منها، وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها".

وعلى هذا النحو يستقصي الجاحظ جميع الوجوه التي تذم بها الكلاب، فيذكرها على لسان صاحب الديك وينقها على لسان صاحب الكلب، ثم يأتي بمحاسنها ومحاولات صاحب الديك في نقضها، وفي أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآي القرآن والحديث ومعارف العرب، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائماً إلى التجربة. وهو في تضاعيف ذلك ستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى كثير أيضاً من عادات العرب. والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذي يرى في قراهم ومدنهم، وأما

---

[١] الحيوان ٢٢٢/١.

العرب فرمزهم الكلب الذي لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم، وكأن معبداً والنظام المعتزلين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام، وإنما هناك الجاحظ لسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل، هناك العرب والشعوبية التي تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[١]، فدائماً الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجن حياتها وكل ما اتصل بها، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذي أهداه على إبراهيم بن العباس الصولي، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية، والنخيل رمز العرب والبادية، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً، وفي كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلاً وفي كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم. ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته ورد صاحب الكلب عليه، وهي تجرى على هذه الصورة[٢]:

"قال صاحب الديك: إن أطعمه اللص بالنهار كسرة خبز خلاه، ودار حوله ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتش وآكل سحت، وهو مع ذلك أسمج الخلق صوتاً، وأحمق الخلق يقظة ونوماً، ينام النهار كله على نفس الجادة (الطريق) وعلى مدق الجوافر، وفي كل سوق وملتقى طريق ... وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب، والنصب والتعب، والغيظ والغضب، وبالمجيء والذهاب، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطنته دابة فأسوأ الخلق جزعاً وألأمه لؤماً، وأكثره نباحاً وعواء، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وطئه إنسان فليست تتم له السلامة، لنه في حال متوقع للبلية، ومتوقع البلية في بلية، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه، لنه أسوأهم جزعاً وأقلهم صبراً، لنه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة، وبعد فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فإنه مذموم، والناس ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً، وينتشرون بالنهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مرحاً. قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية لقلنا. ولو كان خلاف ذلك ألذ لكانت الملوك بذلك أولى. وأما الذي أشرتم إليه من النوم في الطرق الخالية، وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة، وفي الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلم بشأنه، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقي من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رض عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً في طريق خال ليس بحضرته رجال يهابون، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء، وأن ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق لقل خلافه عليك ولما رقد في الأسواق. وعلى أن هذا الخلق إنما يعتري كلاب الحراس، وهي التي في الأسواق مأواها ومنازلها،

---

[١] الحيوان ١٩٣/٧.

[٢] الحيوان ٢٨٢/١ وما بعدها .

وبعد فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباع أخلاق الناس وعادات البهائم؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتسرح وتلتمس المعيشة ليلا، لأنها تبصر بالليل ... أما تركه الاعتراض على اللص الذي أطعمه أياماً، واحسن إليه مراراً، فإنما وج–ب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له. فإذا كان عهده ببر اللص أحدث من عهده ببر أهله لم يكلف الكلب النظر في العواقب وموازنة الأمور. والذي أضمر اللص من البيات غيب قد ستر عنه، وهو لا يدري أجاء ليأخذه أم جاء ليعطي ... ولعل أهله أيضاً أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة، وبالسب والإهانة. وأما سماجة الصوت فالبغل أسمج صوتاً منه، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به. وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القماري والدباسي وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والذئب وابن آوي والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم، فكذلك، وإنما لك أن تذم الكلب ف الشيء الذي لا يعم ... وربما كان من الناس– بل كثيراً ما تجده– من صوته أقبح من صوت الكلب، فلم تخصون الكلب بشيء عامة الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب. وأما عواؤه من وطء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عذبه (طرف) السوط أسوأ من جزعه".

وواضح كيف أن صاحب الديك مثالب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه وفي غلظ صوته وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق، وفي كثرة نباحه وعوائه حين تطؤه دابة. وينقض صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين، وفي الأماكن الجامعة لما يلقي من السفهاء والصبيان، حتى يزجرهم الناس، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد في الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة، وهذا طبيعي لأن الأسواق دورها ومنازلها. أما أنه لا يفي لأصحابه حين يلقي له لص بكسرة خبز، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله، ولا يدري أجاء ليأخذ أوجاء ليعطي، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة. وسماجة صوته ليست مثلبة، فالبغل أسمج صوتاً منه، وكذلك الطاووس الجميل المنظر، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم. وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته في القبح درجات عن صوت الكلب، وذلك لا يعيبهم. أما جزعة من وطء والدواب ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه. وهكذا تسقط جميع المثالب التي وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها في يده شيء. وهي براعة فائقة في الحوار وفي الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب، مع التأني والتمكين للحجج، وهي توضع في صورة أدبية بديعة، هي صورة الأسلوب لمزدوج الذي تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكماً. وتمتد المناظرة في الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ في الجزء الأول

من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثاني فتشغل بذلك مجلداً ضخماً، ثم تبدأ المناظرة في مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثاني. ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر، ويرد عليه صاحب الكلب هذه المحمدة، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار، يقول[١]:

"لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود، ولول أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم، ولوجد ذلك مقسوماً على ساعات الليل، ولكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس تجاوباً إنما ذلك شيء يتوافى معاً، لاستواء العلة، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار ... والحمار أجهل الخلق، فليس ينبغي للديك أن يقضى له بالمعرفة، والحمار قد ساواه في يسير علمه".

وعلى هذا النحو لا يدلي صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه صاحب الكلب نقضا، وبالمثل ينقض صاحب الديك محامد الكلب. ويشتد الحوار بين المتناظرين، ونصبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقض. وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه، فهو الذي أقام تلك المناظرة التي ظاهرها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية، وكان يتعصب للعروبة في أعماقه، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامه ومثالبه ويضفي عليه كثيراً من المحامد والمحاسن في حماسة بالغة.

وهذا لون من ألوان أدبه. ولون ثان هو رسائله الإخوانية، وهي تموج بطرف فكره وبلاغته، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنكر فترة إذ حس انشغاله عنه، فكتب إله الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية[٢]:

"أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الإناة (الحلم) فقد خفت- أيدك الله- أن أكون عندك من المنسوبين على نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس غلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر:

---

[١] الحيوان ٢/٢٥٥ وما بعدها .

[٢] زهر الآداب ٢/١٠٨.

ومن دعا الناس إلى ذمة ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك- أصلحك الله- فلم أجتري إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمة الله: عمر كان خيراً لي منك: أرهبني فأتقاني، وأعطاني فأغناني. فإن كنت لا تهب عقابي- أيدك الله- لحرمه، فهبه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد لحسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة. فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المصر، حتى إذا صرت إلى من هفوته بكر (أولى) وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك، ولا الإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة. واعلم- أيدك الله- أن شين غضبك على كزين صفحك عني، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببي منك، كحياة ذكرى مع اتصالي سببي بك، والعم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام".

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية، ففيها شعر وخبر، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار، فابن الزيات هو الذي طال تغافله عن الجاحظ ويشبه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له، ويسوق دليلاً ملزماً، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفو عنه آمناً من المجازاة وأن يصاب بسوء. ثم مضى يلزمه الرضا عنه، بمنازل متعددة منه، إما لمنزلة حرمته منه، وإما لما تتابع عليه من أياديه، والنعمة تشفع في النقمة، برهاناً ساطعاً، وإما لحسن العادة، وإما لحسن الأحدوثة، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله. ويتلطف له قائلاً إنه أول ذنب ليس وليس ذنب غلا النسيان، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك. فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام؟ وتتقابل عبارات الرسالة في صفوف، وكأن كل كلمة في عبارة سابقة تجذب قرينتها في العبارة اللاحقة، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل في نهايات الجمل المتلاحقة، وهكذا الحاحظ دائماً يكتفي بجمال التوازن العام في أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق في العبارات الأخيرة من الرسالة، "فشين غضبك" توازن "زين صفحك"، و "موت ذكرى مع انقطاع سببي" توازن "حياة ذكرى مع اتصال سببي". وتكامل مثل هذا التوازن في أسلوبه يتيح له وفرة في النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

ولون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهي تعد بالعشرات، ويكفي أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل في حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخلق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل

إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[١] في فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة في شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذي قتله الحجاج وبلال الحبشي والمقداد الصحابي الجليل أول من عدا به فرسه في الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحيقطان الشاعر الذي يفتخر بقومه،ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب ،ويشرح أبياتها، ومثل سنيح بن رباح المعاصر لجرير ويروي قصيدته في الفخر بالزنج ،ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم في بعض الأحداث والحركات السياسية في العصرين الأموي والعباسي، ثم يقول:

"الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حلوقاً منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) السنة، ولا أقل تمطيطاً منهم ... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلفته ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه .وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء. وهذه هي خصال الشرف. والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن، وهذا هو الشرف".

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل، لكان الصقالبة أعقل من الروم لنهم أبخل منهم والروم أشد عقولاً. ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وأدعيتم عليهم ما لا يعرف من ضعف العقل، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع. ويذكر فخر الزنج بملوكهم. ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة، ثم يقول بلسانهم:

"ونحن أهول في الصدور وأملأ للعيون ... كما أنا الليل أهول من النهار ... ودهم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى ،وجلودها أثمن وأنفع وأبقى، والحمر (ج حمار) السود اثمن وأحسن وأقوى، وسود الشاء أدسم ألباناً وأكثر زبداً ... وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة، واشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شيء، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة

---

[١] أنظر الرسالة في مجموعة رسائل الجاحظ. (نشر مكتبة الخانجي) ١/١٧٧ – ٢٢٦.

من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد، قال الله عز وجل: (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما: (مُدْهَامَّتَانِ) قال ابن عباس: خضراوان من الري سوداوان، وليس في الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً ... ولا أجدر أن ينشب فيه الخط من الآبنوس ...

والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر، وكذلك شعورهم في الجنة، وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان، وأكرم الكحل الإثمد، وهو أسود ... وأنفع ما في الإنسان له كبده".

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقاً مواقعه في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد. وكل ذلك يسوي في أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع. ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة، وأنه لا يوجد لون أرسخ في جوهره من السواد ،ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً. ويتحدث عن كثرة عدد الزنج، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات. ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام. ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً لخلقهم، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة، ويسلك فيهم من العرب بني سليم بن منصور وكل من نزل الحرة لسريان السواد فيهم، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحرة (حرة بني سليم) أن ظباءها ونعامها، وهوامها وذبابها، وثعالبها وشاءها، وحميرها وخيلها، وطيرها، كلها سود.

ونحس في حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صح أن جده كان عبداً أسود. وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان في عصره، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر في الحياة الاجتماعية العباسية، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع.

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصي، إذ كان بارعاً في تصويره الشخصيات والنفوس، ولو أنه عرف الأدب التمثيلي لأسعفته ملكته في المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة، وهو بحق لا يباري في وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية، ومن خير ما يصور هذه النزعة

القصصية عنده أقصوصته في كتابه الحيوان عن "القاضي والذباب" وهي تجري على هذه الصورة الرائعة[١]:

"كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميتاً[٢] ولا ركيناً[٣]، ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه، وملك من حركته، مثل الذي ضبط وملك. كان يصلي الغداة[٤] في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه، فيحتبي، ولا يتكي، فلا يزال منتصباً، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حسبوته[٥]، ولا يحول رجلاً عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأن بناء مبنى أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب ... كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة. فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين[٦] بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق[٧] عينه، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه، كما رام الصبر على سقوطه على أنفسه من غير أن يحرك أرنبته[٨] أو يغصن وجهه أو يذب بإصبعه. فلما طال ذلك عليه من الذاب وشغله وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والي بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقة بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله له اضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى. فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عادل إلى موضعه، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده. فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه ترمقه. فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه، إلى

---

(١) الحيوان ٣/٣٤٣.

(٢) زميتا: وقوراً.

(٣) ركينا: رزيناً.

(٤) الغداة: صلاة الضحى النافلة .

(٥) يحتبي: من الحبوة ، وهي أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٦) السماطين ؛ مثنى سماط وهو الصف .

(٧) المؤق: طرف العين ممايل الأنف.

(٨) أرنبته: طرف أنفسه .

أن تابع بين ذلك. وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه. فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء وأزهى من الغراب، واستغفر الله، فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً. وقد علمت أنى عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: **(وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)**.

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سوار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة– التي لم يبلغها أحد– على نفسه وحركته. وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب، بل لكأنما أصبحت له فطرة ثابتة، فإذا هو يجلس محتبياً غير متكئ في المسجد، منتصباً كأنه سارية أو عمود من أعمدته، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنه ولا يسره، ولا يغير وضعهاً له في جلسته، حتى لكأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة. ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم من أيام السنة، بل في جميع أيام طوالها وقصارها، وشيء منه لا يتحرك، لا رجل ولا يد ولا رأس، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظهم وعظاً بليغاً. وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأقصوصة، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل في العظة، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة، ثم أخذ قواة في الوهن شيئاً فشيئاً، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضي على مؤقه، والقاضي يستشعر وقارة صابراً صبراً عظيماً على عض الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يغمض طرفه أو يغضن وجهه أو يذبه. ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه، حتى إذا نفذ صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم يتنح الذاب وظل في إحراقه وإيجاعه، فوالي بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره. وتنحى الذاب قليلاً ثم عاد بأشد مما كان، لأن المكان قد وهى، فكان احتماله له أضعف، فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق. فتنحى الذاب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه، وما زال يلح على القاضي حتى نفد صبره، فذب عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه. وتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه. وعاوده مراراً، وهو يتابع ذبه بطرف الكم. وننتقل مع الجاحظ على الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصور تعلق أعين السامعين، الذين شهدوا المنظر بالقاضي، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة. ويبدأ ببيان الحاج الذباب، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله، ويصرح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه، وأنه لا يختلف في ذلك عن بني جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة. والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الجاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل، وكأنها

مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لهنا بحذافيره نقلاً واعياً،أ، قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شيء في الروية الحسية ولا في الرؤية النفيسة.

ولون خامس في كتابات الجاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له، على نحو ما صور ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغير ولا تبدل صورتها اللفظة، سواء جرت على ألسنة البدو أو ألسنة العامة، يقول[١]:

"ومتى سمعت- حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العام وملحه من ملح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورته من الذين أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها".

وطبق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً، فالنادرة تروي بألفاظها كما ندت من ألسنة أصحابها، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً في البداوة ظلت كما اجتلبت دون أي تعديل، فإنها إن عدلت مسخت وأصبحت مشوهة الخلق، وفارقتها طبيعتها، ولم تعد مضحكة. وتكثر النوادر في البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثير من تقاليده وطعامه وملابسه. فكل ما في المجتمع المصري من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل شياته وسماته. وله في المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم، ونسوق لهم هذه النادرة التي صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصبية، قال:

"كنت ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع الكتاب، فدخلت يوماً قرية، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد على أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأدوات، فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. وكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته وطرقت الباب، فخرجت إلى جارية وقالت: ما تريد ؟ قلت: سيدك. فدخلت وخرجت، وقالت: باسم الله !. فدخلت إليه، وإذا به جالس كئيباً، فقلت: عظم الله أجرك (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)، (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذي توفى ولدك ؟ قال: لا، قلت: فوالدك ؟ قال: لا، قلت: فأخوك ؟ قال: لا، قلت: فزوجتك ؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك ؟ قال: حبيبتي. فقلت

---

[١] البيان والتبيين ١/١٤٥.

في نفسي: هذه أول المناحس، فقلت: سبحان الله ! النساء كثير، وستجد غيرها، فقال: أتظن أني رأيتها ؟ قلت: هذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال: اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلاً عليه برد (ثوب) وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي على فؤادي أينما كانا

لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنساناً

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه، وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار، فقلت: يا هذا: إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قويت عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله".

والنادرة طريفة منتهى الطرافة، والمعلم فيها يأخذ سمتاً جاداً، يزينه في أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألف في نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة، ويلاحظ أنه أغلق كتابه فيزوره في داره، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب، فظن أنه فقد عزيزاً لديه، وأخذ يسأل عنه، وهو يجيب جاداً، حتى عرف أنه فقد معشوقته. وكأنما أطل حمقه على الجاحظ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها، وتتوالى غفلته في هذا الحب الأحمق الذي تهوى فيه كل قواعد المنطق، وكأننا في مسرح هزلى نفضي فيه إلى الضحك، وكلما مضينا في النادرة أغربنا فيه، لا نتوقف، وكأنما اختل توازننا، أو كأنما نندفع في انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يطوي فيها من حمق فظيع، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض. ولعل م الطريف أ الجاحظ كان يتندر على كل شيء حتى عل نفسه وشكله القبيح، ويروي عنه أنه قال: "ما أخجلني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سالت الصائغ فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره فأتت بك لأصوره على صورتك".

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية في كتاباته. ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت في الجاحظ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة، وما وصلها به من ذخائر الثقافات

الأجنبية، وما جسدها فيه من طوابع عقلية ومن جد وهزل ومن نقل لكل صور الحياة في مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطرف والنوادر ومن أسلوب ملئ بالنغم، يجري فيه دائماً الازدواج الذي يروع القارئ بجرسه، إذ يمتع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تصغى إليه، كما يمتع بمضامينه العقول والأفئدة.

٣

ابن قتيبة[١]

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد سنة ٢١٣ للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان، ومن ثم نسب إليها، فيقيل المروزي، اختلف في صباه إلى كتاب، فحفظ شيئاً من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئاً من الفقه والنحو والحساب، ولم يكد يثب عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب، وخاصة ما ترجم عن الفارسية، ولمع اسمه في بيئة الفقهاء، فتولى القضاء بدينور، ولذلك يقال له الدينوري. وعاد على بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفى سنة ٢٧٦ للهجرة. وقد أكب على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها، مع أنهما كانا على طرفي نقيض، فقد كان الجاحظ معتزلياً كما مر بنا، وكان ابن قتيبة سنياً، وله كتابان: مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديثة، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء، وهما منشوران. وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن. ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ،ويعقب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل لإسلام. وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب الميسر والقداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة وهو منشور أيضاً بالقاهرة ونشر باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول عليه. ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى صعره، وهو منشور مراراً. وله كتاب معاني الشعر الكبير. وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتاب الناشئين؛ منها كتابه "أدب الكاتب"، الذي عرضنا له في غير هذا الموضع، وهو يمد الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة، وأهم منه كتابه "عيون الأخبار" وهو يمد الكاتب فيه بكنز الثقافات التي تسعفه في مادة عمله.

---

(١) أنظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١ والانساب للسمعاني الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد ١٧٠/١٠ وإنباء الرواة للقفطي ١٤٣/٢ ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص٢٠٩ وابن خلكانم والنجوم الزاهرة ٧٥/٣ والديباج لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب ١٦٩/٢ ومرآة الحنان لليافعي ١٩١/٢.

وابن قتيبة يعد أكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ، وهو سنى محافظ ولذلك يكون من المنطق أن تتضح محافظته في آرائه النقدية، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعة المجددة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة. ويتضح ذلك في مقدمته الطويلة لكتابه "الشعر والشعراء" إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خص بها قوماً دون قوم. وهي نظرة منصفة، ولكنه يعود فيقول: "ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين .. فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشيخ والحنوة[١] والعرارة، وهي لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السني في العصر الذي حل محل جو الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل. وكانت هذه النظرة تلتقي مع النظرة السابقة التي لا تضع في موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة. ومر بنا في غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية، بل كان ثاني اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة، وعرضنا هناك لمصنفه: "كتاب العرب أو الرد على الشعوبية" وكانت له وراء ذلك في نفس الموضوع كتب مختلفة.

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحد منها جميعاً بحيث لا يشغل أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذي طال عليه الأمد منذ عهد المهدي حتى صره. وحقاً حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شيء يشغله، حتى ليقول: "لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة"[٢] وأشار غير مرة إلى أن كتابه "أخذ من طرف الفلسفة". ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية في العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علمها ويبذلون قصارى جهدهم في الدعوى لها مشيرين دائماً إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كي يقضي على هذه النزعة

---

[١] الحنوة والعرارة: من أزهار البادية .

[٢] الحيوان ١٤٣/٢.

الحادة من أن تلتقي- على يد كاتب عظيم- ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها في مجرى النهر العربي الإسلامي بحيث تتلاشى فيها نهائياً ،ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة في أروع صورة، إذ مضى ينسق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة مع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألفت كتابه "عيون الأخبار"، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصحبته واختياره للعمال والقضاة والحجاب والكتاب، ويبدؤه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية في الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: وقرأت في كتاب من كتب الهند: "شر المال ما لا ينفق منه، وشر الإخوان الخاذل، وشر السلطان من خافه البريء، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن ... وخير سلطان من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيفة حولها النسور" ويذكر أقوالاً لابن مسعود وعمر بن الخطاب، ثم ينقل فصلاً طويلا من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصور من الأدب الأخلاقي في عهد ملوك الفرس الساسانيين، ثم يقول: "وقرأت في التاج (وهو في سيرة أنوشروان) لبعض الملوك: هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء يجل، وألباب السوق مشغولة بأيسر الشيء". ويعود على النقل عن بعض النابهين من العرب، ثم يقول: "وقرأت في بعض كتب العجم كتاباً لأردشير بن بابك إلى الرعية ن وينقل الكتاب جميعه، ويعقب عليه بكتاب من أرسطاطاليس إلى الإسكندر وفيه: "املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك، هو أدوم بقاء منه باعتسافك، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطها إلى القلوب بالمعروف، واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت على أ، تفعل، فاجهد ألا تقول تسلم من أن تفعل". ويتلو ذلك بقوله: "وقرأت في كتاب الآيين (في أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له: "إني إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وافحص عن الأعمال لا عن السرائر" ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج في رعيته، ثم يقول: "وقرأت في كتاب التاج: قال أبرويز لابن شيرويه وهو في حبسه: "لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك، ولا تضيقن عليهم فيضجوا منك، أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، ووسع عليهم في الرجاء، ولا توسع عليهم في العطاء". ويروي عن عمر بن الخطاب "إن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة، أقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله، فإن الدنيا تنفد والأخرى تبقى ... وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة

بهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن، وإنما حتفها في السمن". ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير في الرعية، ولا يلبث أن يقول: وفي كتاب من كتب العجم أن أردشير قال لابنه: "يا بني إن الملك والدين أخوان لا غني بأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع" ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح أن تكون في السلطان. ويتحدث عن اختيار العمال ويخم حديثه بقوله: قرأت في كتاب للهند" السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه وأطرحه مخافة ضره، فعل الذي تلسع الحية إصبعه، فيقطعها لئلا ينتشر سمها في جسده، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغناء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه". ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه، ويقول: "قرأت في كتاب للهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار، وإنما تشبه بالجبل الوعر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد ... ولا خير في الشيء الذي في سلامته مال وجاه، وفي نكبته الجائحة والتلف". وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزل والوعاظ وعن بعض كتبه التي كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبرويز في بعض ما كتب به على ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامي وبشار وغيرهما، ويعرض لخيانات العمال، وينقل من كتاب التاج: أن أبرويز قال لصاحب بيت المال: "إني لا أحتملك على خيانة درهم، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتعمر به أمانتك، فإنك إن خنت قليلاً خنت كثيراً". ويكثر في فصل القضاء المعقود في هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام، ويروي كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء، وهو دستور عظيم في عدالة القضاء ونزاهته. وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم، وفيها يكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً، ويعود في الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس.

والكتاب الثاني كتاب الحرب، وفيه يتكلم عن آدابهما ومكايدها وأوقاتها وحيلها وعددها وسلاحها، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وببعض وصايا أبي بكر وعمر للجيوش وقوادها عند عقد الألوية، ويذكر بعض ما قرأ في كتب العجم والهند، ومما قرأه في الأخيرة: "الحازم يحذر عدوه في كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والغارة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولي، والمكر إن رآه وحيداً، ويكره القتال ما وجد بدا، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال". ويذكر بعض حيل الفرس والعرب في الحرب، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين، ويفيض في الحديث عن الشجعان وإنشاد للشعر الحماسي.

والكتاب الثالث كتاب السؤدد، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه، ويعرض لجوانب كثير من الشرف والأخلاق الرفيعة، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه، ويدعو إلى التوسط في الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسطاليس. ويفرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية، وفيها يقول: وقرأت في كتاب للهند: "قلما يمنع القلب من القول إذا تردد عليه، فإن الماء ألين من القول، والحجر أصلب من القلب ،وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثر فيه، وقد تقطع الشجرة بالفئوس فتنبت، ويقطع اللحم بالسيوف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب في الجوف فتنزع، والقول إذا وصل إلى القلب لم ينزع، ولكل حريق مطفئ: للنار الماء، وللسم الدواء، وللحزن الصبر، وللعشق الفرقة، ونار الحقد لا تخبو". ويذكر أن واشياً وشى برجل إلى الإسكندر فقال له: "أتحب أن أقبل منك ما قلت فيه على أن أقبل منه ما قال فيك؟ قال: لا، قال فكف عن الشر يكف عنك الشر"، وينقل في هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر، كما يعرض للنبات. ويعقبه الكتاب الخامس للعلم والبيان، ويستهله بحديث عن الرسول ويقول: في كتاب للهند: العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه، ويذكر عن بزر جمهر أنه قيل له: بم أدركت ما أدركت من العلم ؟ فقال ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار" ويذكر عن أفلاطون أنه قال: "لولا أن في قول لا أعلم سبباً لأني أعلم لقلت إني أعلم". ويروي بعض كلمات للمسيح عليه السلام، ويفتح فصولاً للقرآن الكريم والحديث الشريف والفرق والأهواء في الدين، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون.

والكتاب السادس كتاب الزهد، وفيه تبرز بجانب مواعظ كبار النساك والوعاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها، بل أيضاً ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحي الله عز وجل إلى أنبيائه. وينقل من التوراة ومن الإنجيل، ومن ذلك قوله: "قرأت في الإنجيل: لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود وحيث ينقب السراق ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء، فإنه حيث تكونوا كنزكم تكون قلوبكم " ويذكر أن رجلاً من الحواريين قال للمسيح: أتأذن لي أن أدفن أبي ؟ فقال له: دع الموتى يدفنون موتاهم. ويذكر له دعاء طويلاً حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه، كما يذكر دعاء لداود وتحميداً طويلاً ودعاء ليوسف، ويروي عن المسيح أنه قال: حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيها داء؛ قيل: ما داؤه؟ قال: لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر، قيل وإن سلم ؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله. وبذلك يكون

ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين. والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد في البيان والتبيين للجاحظ واضحة.

والكتاب السابع كتاب الإخوان، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغي أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك في السراء والضراء.، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين. والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجزها، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بزرجمهر: "إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق، فإنها لا تفنى، وإذ أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى". والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب في مآكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأواني الأكل والحمية وشرب الدواء والتخمة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول. وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية، ويصرح بأنه ينقل في هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه، ويذكر في الحمية عن الطبيب اليوناني جالينوس أنه قيل له: إنك تقل من الطعام ؟ قال: غرضي من الطعام أن آكل لأحيا وغرض غيري من الطعام أنم يحيا ليأكل. وبالمثل ينقل عن أبقراط اليوناني نقولا، كما ينقل عن أطباء العصر العباسي مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآبين الأعجمي. والكتاب العاشر كتاب النساء، وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يقبل منهن نما يكره والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجواري والقيان ومساوئ النساء، ويحكي هنا قصة حصار أردشير لمدينة الحضر الأسطورية التي يقال إنها كانت قائمة في الزمن القديم بين دجلة والفرات، وكيف أن فتاة ملك الحضر رأته فعشقته، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعدها الاقتران بها، ووعدها، فدلته على الموضع، ودخل المدينة هو وجنوده.

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية، وكذلك ثقافة أهل الكتاب، فكل الثقافات الأجنبية العربية من مدنية ودينية واستحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التي نقرؤها في عيون الأخبار. وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خفت صوت الشعوبية، فإن الكنوز التي كانت تباهي بها تحولت إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لبه، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشق لنفسها جداول تجري فيها وحدها، فقد صبت في نهر العروبة الكبير وذابت فيه، أذابها بن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر، وأكبر الدلالة على ذلك لا تضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلا شديدا مع السنين فقط، بل أيضاً أنا لا نعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدي كتاب عيون الأخبار،

وبعد أصبح المصدر الأساسي لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيده ا؟لأدب العربي منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية. فكل ذلك قد اصبح تحت أيدي العرب وأبصارهم، ولم يعودوا في حاجة إلى مزيد منه، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دون الفردوسي في الشاهنامة من شعر قصصي ولا بما كتب حافظ الشيرازي وغيره من شعر صوفي. وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد فحسب، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري، مصورين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية.

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب في أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوب ابن قتيبة فيه، فإن كل هذه المواد الثقافية التي تسقها بكها في أسلوب أدبي رائع، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحياناً، وأحياناً يسترسل دون محاولة الازدواج، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أي نشاز ولا أي اضطراب أو انحراف، فقد كانت اللغة مرنة في يده، وكان لا يتأبى علي أي لفظ، ولا تستعصى عليه أي كلمة. وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجري فيه من استواء صنف كتابه عيون الأخبار جميعه، بحيث غدا كأنه مصبوب في قوالب متماثلة، قوالب تستريح لها الأذن، وتجد فيها القلوب والعقول متاعاً لا ينفد، واقرأ سطوره الأولى في المقدمة، فإنها تطرد على هذا المنوال:

"الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين، وتفوت آلاؤه عدد العادين، وتسع رحمته ذنوب المسرفين، والحمد لله الذي لا تحجب عنه دعوة، ولا تخيب لديه طلبة، ولا يضل عنده سعي، الذي رضى عن عظيم النعيم بقليل الشكر، وغفر بعقد الندم كبير الذنوب، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين. والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير، السراج المنير، هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محبته، ودالاً على سبيل جنته، ففتح لنا باب رحمته، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله في كل نعمة أنعم بها حقاً، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة، فزكاة المال الصدقة، وزكاة الشرف التواضع، وزكاة الجاه بذله، وزكاة العلم نشره، وخير العلوم أنفعها، وأنفعها أحمدها مغبة، وأحمدها مغبة ما تعلم وعلم لله وأريد به وجه الله تعالى".

وهذه القطعة في مستهل الكتاب تصور ضرباً من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة، وقد يجري السجع على لسانه في غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة. والعبارات الأخيرة التي ردد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة، وتعقب فيها الكلمة الأخيرة ورددها كما في كلمة "أنفعها" و "أحمدها" هذا الأسلوب بعينه نجده

عند الجاحظ، وكأن ابن قتيبه تمثل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضي معه في المقدمة، فنراه يقول:

"وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرةً، ولأهل العلم تذكرةً، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً، وللملوك مستراحاً، وصنفتها أبواباً، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها، ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض، حلية الأدب، وثمار طول النظر، والمتخير من كلام البلغاء، وفطن الشعراء، وسير الملوك، وآثار السلف".

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذي كتب هذا الكلام، وسئلنا عن صاحبه لجبنا توا الجاحظ، إذ نشعر كأنما فصل من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات، بحيث تتقابل الكلمات في صفوف، وكل كلمة كأنما تمسك بمثيلتها في العبارة التالية، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة، فهي وعلى وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها، وكان هذا يحدث تماسكاً شديداً في أسلوب الجاحظ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد. أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دارة الفكرة التي يعالجها، وكتابته من هذه الناحية مرتبة مبوبة في أدق نسق. ويكفي أن ننظر في فهرس عيون الأخبار فسنرى الكتاب من كنبه العشرة يفتح، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه، وكأنها حلقات في سلسلة متتابعة وليس في داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام، بل لكأنما الكتاب خيط ممتد أحكمت فصوله ونسقت مواده تنسيقاً دقيقاً. وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبي من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة، إذ لا يسمح لأي فصل داخلي في كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأي استطراد لخلخل الكلام أو يفقده سياقه. ولكن إذا كان قد تفوق على الجاحظ من حيث نسق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه في وصله الأدب بمجتمعه، على نحو ما صورنا من صنيعه في هذا الجانب. وحقاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له، ولكنه لم يحك أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصرهم على نحو ما حكى الجاحظ،ولا حكى أخبار طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة. وهو لذلك لا يعد كاتباً واقعياً على نحو ما يعد الجاحظ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتفي أثره. ومر بنا أن بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أي حرج في أي شيء يخجل منه المتزمتون، حتى العورات كان لا يرى في ذكرها أي باس ما دام الكلام يستلزم ذكرها، ويتابعه ابن قتيبة في تقديمه لعيون الأخبار قائلاً: "إنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين، وإذ مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك، وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب". ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ في صراحته،

إذ كان في حقيقته محافظاً متزمناً لا يستطيع أن يترك لنفسه- مثل الجاحظ- العنان في الصراحة دون أي مواربة.

ومر بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه في مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج في كتابته، يقول: "ولم أخله من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة،وأخرى مضحكة .. لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وإتعاب الحق، فإن الأذن مجاجة، وللنفس حمضة، والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً، ولأحايينه وأوقاته، وأسباب أوجبته مشاكلا، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله. وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاج والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك لهخ فاعرف المذهب فيه وما أردنا به".

وإذا انتهينا- كما يقول ابن قتيبة- إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا تواً أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ، فمنها كثير لا يثير ابتساماً، وما يثير الابتسام قليل جداً، ويكفي أن يقول إنها مما روي عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدماً أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يندر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه. ونسوف منها هذه النوادر عن الشعبي (من علماء الكوفة) لتعرف طوابعها ومدى ما فيها من المزاح:

"دخل رجل على الشعبي ومعه في البيت امرأة، فقال لهما: أيكما الشعبي، فأجابه الشعبي: هذه. وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه: نحن نرضي منه بالكفاف. ودخل على الأعمش زميله يعوده في مرض، ونظر من حوله إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط، ثم قال له: أما أنت فتعرف في منزلك أنك لست من أهل القريتين (مكة والطائف) عظيماً".

أين هذه النوادر، من نادرة المعلم الأحمق التي رويناها آنفاً، والتي مثل فيها الجاحظ حمقه تمثيلاً هزلياً مضحكاً؟. ولا ريب في أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد، يضحك وتستغرق في الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتسترد نفسك إلا بعد ضحك عريض، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر، ويغلب عليه استشعار الجد، وكأنه إذا هزل أو تندر خرج عن طبعه، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ. ومن بقية هذا التشبه عنده في باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم في تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكي النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن، ومر بنا كلام الجاحظ في هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامية بصيغتها ولحنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة

إذا انقلب ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدلت صورتها الفكهة، ويقول ابن قتيبة محتجاً لذلك: "اللحن إن مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده، لن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه، وشاطر النادرة حلاوتها، وسأمثل لك مثالاً، قيل لمزيد المديني (المضحك)- وقد أكل طعاماً كظه (أتخمه)- قي (قيء) فقال: ما أقي، أقي نقا (مخا) ولحم جدي ! مرتي طالق لو وجدت هذا قيا لأكلته. ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها، ولاستبشعها سامعها". والنادرة نفسها التي تمثل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدل- هي وما سبقها بوضوح- على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ.

والجاحظ في الواقع قمة بعيدة المنال في الأدب العربي كله، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه، فقد كان فريداً في عصره والعصور السابقة جميعها، ويكفي ابن قتيبة مجداً أدبياً أسلوبه الواضح الناصع الذي وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد أصحاب الشعوبية بما سوى للعربية في عيون الأخبار من هذا الأدب العربي الرفيع الذي وسع مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة.

٤

سعيد بن حميد[١]

أبوه حميد بن سعيد فارسي الأصل، كان من أهل النباهة في بغداد ووجها من وجوه المعتزلة وكان يحسن نظم الشعر، ولا نعرف متى ولد له سعيد، ويبدو أنه عني به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره، فألحقه بكتاب حفظ فيه شيئاً من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب، حتى إذا خطا خطوات في العقد الثاني من عمره دفعه إلى حلقات الدرس في المساجد، ويروي أنه عني خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة في نحو عشرين بيتاً وحفظها بمجرد سماعها، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته. ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوي الكبير، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف، مكباً عليها ناهلاً منها متمثلاً لما يقدم فيها من غذاء أدبي وفكري، مما جعل المسعودي يقول عنه: "كانس عيد حافظاً لما يستحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفاً في فنون العلم، ممتعاً إذا حدث، مفيداً إذ جولس". ولعل ذلك ما جعل فضلاً الشاعرة تعجب به، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن فضل. وكان قد ملأه الطموح بالنجاح في سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها. ولا ريب في أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرئب أعناقهم إلى صحبته، وكان فيه دعابة تجعل مجلسه خفيفة الروح، مما جعل أبا علي البصير وأبو العيناء نديمي المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات، كما قال الرواة. ويبدو أنه كان ينتظم بين كتاب الدواوين لعهد المتوكل، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأي ما اشتهر به من تعصبه على آل علي بن أبي طالبت تعصباً شديداً حتى ليقول ابن المعتز: "كان سعيد من أشد الناس نصباً (عداء) لعلي وانحرافا عن آل الرسول عليه السلام[٢]" ويقول المسعودي: " كان يتنصب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده". ومر بنا في غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين في كربلاء وانحرافه عن علي وآله، وكأن سعيداً

---

[١] أنظر في ترجمة سعيد ورسائله الفهرست ص ١٨٥ والأغاني (بعة الساسي) ٢/١٧ ومروج الذهب ٦١/٤ وابن خلكان وكتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس أحمد السامرائي (طبع بغداد) وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت.

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦.

اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه. على كل حال نظن في هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معاً أنه كان يعمل في ظله، وأنه استحال بوقاً من أبواقه. ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف لعجم من العرب ويعرف بالتسوية،والكتاب لم يصلنا،ولا ندري هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافاً شديداً أو انحرافاً خفيفاً، على أن في كلمة ابن النديم أن الكتاب يعرف بالتسوية ما قد يشير على أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم، والتسوية كما مر بنا في هذا الكتاب وكتاب العصر العباسي الأول لا تدخل في العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية. وفي أشعاره ما يدل على أنه كان معتزلياً مثل أبيه على نحو ما نرى في قوله[١]:

قد قلت بالعدل ولكنني　　عدلت في الحب عن العدل

فقلت بالإجبار مستغفراً　　لله من قولي ومن فعلي

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة، والتي تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شيء بقضاء وقدر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير.

ولعل في ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية، وهيأ له ذلك أن يصبح من كتاب الدواوين مبكراً. وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها ترمقه وتلاحظه ،إذ كان شاعراً بارعاً وكاتباً نابغاً.

وكانت أول حادثة لمع فيها اسمه البيعة للمنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧، فقد ذكر أن أحمد بن الخصيب وزير المنتصر قال له: ويلك يا سعيد! أمعك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة؟ قلت: نعم وكلمات ،وعملت كتاب البيعة. وهو كتاب طويل استهله بقوله[٢]:

"بسم الله الرحمن الرحيم. تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضاً، ورغبة بإخلاص من سرائركم ،وانشراح من صدوركم، وصدق من نياتكم لا مكرهين ولا مجبرين، بل مقرين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه، وإعزاز دين الله وحقه ،ومن عموم صلاح عبد الله واجتماع الكلمة، ولم الشعث ،وسكون الدهماء، وأمن العواقب، وعز الأولياء ،وقمع الملحدين ... لا تشكون ولا تدهنون (تمالئون) ولا تميلون، ولا ترتابون، وعلى السمع له، والطاعة المسالمة، والنصرة والوفاء والاستقامة والنصيحة في السر والعلانية، والخفوف والوقوف عند كل ما يأمر به".

---

[١] كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٤١.

[٢] أنظر الطبري ٩/٢٣٥ وما بعدها.

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح في هذه السطور القليلة، فهو يعني أشد العناية باختيار لفظه، وهو لا يطيل عباراته، بل يجعلها قصيرة، حتى لتصبح كلمة مثل: "طوع واعتقاد ورضاً"، ومثل "اجتماع الكلمة، ولم الشعث، وسكون الدهماء ،وأمن العواقب، وعز الأولياء، وقمع الملحدين" فالكلمات تتعاقب، جزلة حقا، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه، إذ لا تلبث أن تحملها حتى ترسلها. ويظل كاتباً لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر، حتى إذا ولي الخلافة بعده المستعين لسنة ٢٤٨ عزل ابن الخصيب من الوزارة، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجائي، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد[١]، وبذلك أصبح الكاتب الأول في الدولة الذي تصدر عنه جميع رسائلها الديوانية، ومما كتبه حينئذ رسالة خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد، وكان المستعين قد نزلها سنة ٢٥١ بعداً عن سامراء مدينة الترك وبغيهم، فبايعوا المعتز ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الوقعة حتى تقرأ على أهل بغداد في مسجد جامعها، وهي رسالة طويلة طولاً شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية:

"ساروا نحو مدينة السلام (بغداد) معلنين للبغي والاقتدار، مظهرين للغي والإصرار، فتأناهم أمير المؤمنين (المستعين) وفسح لهم في النظرة ،وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد ... وأن يبين لهم ما سلف من بلائم عندهم من أسنى المواهب، وأرفع الرغائب، والاختصاص بسنى المراتب، والتقدم في المحافل، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً، وتمسكاً بالغي وإصراراً ... وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب، وعارضوا التبصير بالاستبصار في الباطل ... وصدقهم أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر) في لقائهم بقلوب مستجمعة لهم، وعلم بأن الله لا يخلف وعده فيهم، فجالت الخيل بهم جولة، وعاودت كرة بعد كرة، طعناً بالرماح، وضرباً بالسيوف، ورشقاً بالسهام فلما مسهم ألم جراحها وكلمتهم (جرحتهم) الحرب بأنيابها، ودارت عليهم رحاها، وصمد لهم أبناؤها ظمأ إلى دمائهم، ولوا أدبارهم، ومنح الله أكتافهم، وأوقع باسه بهم، فقتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة، ولم يتحصنوا من عقابه بإنابة ... فمن قتيل غودرت جثته بمصرعه، ونقلت هامته على مصير فيه معتبر لغيره، ومن لاجئ من السيف إلى الغرق لم يجره الله من حذاره، ومن أسير مصفود (موثق بالأغلال) يقاد على دار أولياء الله وحزبه، ومن هارب بحشاشه نفسه ... فرقا أربعاً تجمعها النار، ويشملها عاجل النكال عظة ومتعبراً لأولي الأبصار".

وواضح تقطيع العبارات وتقابل الكلم في الرسالة، وكأننا بإزاء حائك، يقيس ثياباً متماثلة مقدرة على معانيها. وقد يتكامل التقطيع، فيظهر السجع، ولكنه ليس سجعاً متكلفاً، فليس مرده إلى محاولة صنعة، وإنما مرده إلى دقة التقطيع، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعات متوالية. وما نزال

---

[١] طبري ٩/٢٦٤.

نتنقل بين تقاطيع طريفة، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذي دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة: فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوي.

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدي رسائله الديوانية، فمن ذلك تحميد كتب به فتح نهض به القائد التركي وصيف، يستهله بقوله[١]:

"أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد، الفعال لما يريد، الذي خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته، ودبره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته، التي تدعو العقول إلى معرفته، وتشهد لذوي الألباب بربوبيته، وتدل على وحدانيته، لم يكن له شريك في ملكه فينازعه، ولا معين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه، فليس يتصرف عباده في حال إلا كانت دليلاً عليه، ولا تقع الأبصار على شيء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صنعه، وأبان فيه من دلائل تدبيره، إعذاراً بحجته، وتطولاً بعمته، وهداية إلى حقه، وإرشاداً إلى سبيل طاعته ... والحمد لله العزيز القهار، الملك الجبار، الذي اصطفى الإسلام واختاره، وارتضاه وطهره وأعلاه وأظهره، فجعله حجة أهله على من شاقهم (خالفهم) ووسيلتهم على النصر على من عند (مال) في حقهم، وابتغى غير سبيلهم".

السجع كثير في هذا التحميد وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع في العبارات، وإحساس الكتاب بأنه لا باس من استكمال هذه التقاطيع، ولكن لا على أساس الجور على المعاني، وإنما على أساس الوفاء بها. وسعيد يستوفي في أول تحميده صفات الله جل شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمه في تدبير الكون، مما يشهد بوحدانيته. ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلم بالوحدانية إذ يقول: لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تعينه في الخلق وتساعده، ولو صح ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ويعرض حجة على ربوبيته التأمل في خلق الإنسان وفي نظام الكون مما يهدي إلى طريق الرشاد.

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التي كان يكتبها في أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة. منها تهنئات بعيد النيروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات، ونعرف طائفة منها بادئين بتهنئاته في عيد النيروز، فمن ذلك رسالة إلى أبي صالح بن يزداد وزير المستعين[٢]:

"النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمر مصروف إليك، فما عسانا أن نهدي لك في هذا اليوم، وهو يوم سهلت فيه العادة، سبيل الهدايا للسادة، وكرهت أن نخليه من سنته

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٢٩٥/٤.

[٢] العقد الفريد ٢٨٢/٦ وديوان المعاني ٩٥/١.

فنكون من المقصرين، أو ندعي أن في وسعنا ما يفي بحقك علينا فنظن من الكاذبين، فاقتصرنا على هدية تقضي بعض الحق، وتقوم عندك مقام أجمل البر، وهي الثناء الجميل، والدعاء الحسن، لا زلت أيها الأمير دائم السرور والغبطة في أتم أحوال العافية، وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأعياد الصالحة، والأيام المفرحة، فتخلقها وأنت جديد، وتستقبل أمثالها، فتلقاك ببهائها وجمالها. وقد بعثت الرسول بالسكر لطيبه وحلاوته والسفرجل لفأله وبركته ،والدرهم لبقائه عند كل من ملكه، ولا زلت حلو المذاق على أوليائك، مراً على أعدائك، متقدماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم (ساحاتهم) بمثلك".

والرسالة تحمل أسلوب سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعاني المتقابلة، فالنفس يقابلها المال، والرجاء يقابله المر. ويسقط السجع سقوطاً طبيعياً، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة. يمسح على ذلك لطف الحضارة، وما يمتاز به أهلها من دقة الحس ورهافة الذوق، على نحو ما يتضح في المعاني التي تحملها الهدية، فالسكر رمز للحلاوة والسفر جل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير في عزه. ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال[١]:

"أيها السيد الشريف ! عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر، موصولة بقرائنها من الشكر، لا ينقضي حتى نعمه، حتى تجدد لك أخرى، ولا يمر بك يوم غلا كان مقصراً عما بعده، موفياً على ما قبله. إني تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة، فالتمست التأسي بهم في الإهداء، وإني إن أهديت نفسي فهي ملك ملك، لاحظ فيها لغيرك، وإن رميت بطرفي إلي كراثم مالي وجدتها منك ... وفزعت إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيت إن أنا جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الجديد براً ولا لطفاً (هدية) ولم أقس منزلة من شكري بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق، والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك، والإقرار بما يجب لك براً أتوصل به".

والرسالة تحمل في جوهرها معاني الرسالة السابقة، وفيها نفس التلطف، وإن كان قد ازداد رقة في الدعاء وفي التعبير عن الاعتذار بالتقصير، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قد مهما من قبل، ولم يبق في طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذي لا يماثله شكر، وتتوافر التقطيعات في الرسالة ويظهر السجع أحياناً في خفة وبدون أي تكلف لجهد أو عناء. ويكتب لصديق عزل عن عمله، مسلياً له[٢]:

---

(١) عيون الأخبار ٣٩/٣ ، والعقد الفريد ٢٨١/٦ وديوان المعاني ٩٤/١.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢٨٧/٤.

"حفظك الله بحفظه، واسبغ عليك كرامته، وأدام إليك إحسانه، إن سروري بصرفك أكثر من سرور أهل عملك بما خصوا به من ولايتك. وقد كنت- أعزك الله- فما يربا بك عنه بما أنت عليه في قدرك واستئهالك، ولكنا رجونا أن يكون سبباً لك على ما تستحق، فطبنا نفساً بالذي رجونا. فالحمد لله الذي سلمك منه، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشفع (قرن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات، وأشرف المراتب، ثم خصك الله بجميل الصنع، وبلغك غاية المؤملين. إن من سعادة الوالي- حفظ الله- وأعظم ما يخص به في عمله وولايته السلامة من بوائق (دواهي) الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة مما يخاف منها، وقد خصك الله منها- بمنه وطوله (إنعامه) ما نرجو أن يكون سبباً إلى نيل ما تستحق من المراتب، والله نسأل إيزاعك (إلهامك) شكر ما من به عليك، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك، برحمته وفضله".

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ عكس سعيد العزاء عن العمل، وجعله تهنئة خليقة بأن تنصب لها أعلام السرور. ومضى يصور سروره وأنه يزيد عل سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم. ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفساً، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة. ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعد ذلك نعمة ليس فوقها نعمة، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها اصدق الشكر، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله. وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه. فقد يكون حسناً وينقلب سيئاً، وقد يكون سيئاً وينقلب حسناً، ولا يرى فيه إلا الحسن، بفضل الذخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي. وله من رسالة تعزية[1]:

"إذا استوى المعزى والمعزى في النائبة استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية ... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون، إقراراً لها بالهلكة، واعترافاً بالمرجع غليه، وتسليماً لقضائه، ورضاً بمواضع اقداره، وأسأل الله أن يصلي على محمد صلاة متصلة بركاتها، وأن يوفقك لما يرضيه عنك قولاً وفعلاً، حتى يكمل لك ثواب الصابر المحتسب وجزاء المطيع المتنجز للوعد، ويرحم فلاناً ويحله أعلى منازل أوليائه الذين رضي سعيهم، وتطول بفضله عليهم، إنه ولي قدير".

والحيلة أيضاً في هذه الرسالة واضحة، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزى، فهو أيضاً حرى بأن يعزى فيه، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة، بل يشمل كثيرين هو أحدهم. وقد أخذ يحتال على أ، يسلو عنه صاحبه، تسليماً للقضاء، واعترافاً بأن كل من عليها فان، ورضا بالمقادير، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه

---

[1] جمهرة رسائل العرب ٢٩٢/٤.

للصبر على المصيبة، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه في الدرجات العلية. وله يهنئ بعض إخوانه بولاية[١]:

"أنا أهنئ بك العمل الذي وليته، ولا أهنئك به، لأن الله أصاره على من يورده موارد الصواب، ويصدره مصادر الحجة ويصونه من كل خلل وتقصير، ويمضيه بالرأي الأصلي، والمعرفة الكاملة. قرن الله لك كل نعمة يشكرها، وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك (ألهمك)(من لمعرفة بها ما يصونها من الفتن ويحوطها من النقص".

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسي الخصب الحافل بما يلفت السامع ويروع، وهي أن العمل هو الذي يهنأ بهذا الوالي، لا أن الوالي هو الذي يهنأ به، إمعاناً في المدح والإطراء، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن في الإيراد والإصدار، ومن يصونه ويحفظه من أي خلل أو تقصير، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة. ويدعو له بالأمن في عمله والسلامة من الفتن والثورات، وهو خطاب مقتضب، ولكنه جامع شامل، مع اللفظ المنتقي والأسلوب المصفي. وله من رسالة في ذم بعض الأشخاص وهجائه[٢]:

"رجل يعنف بالنعم عنف من قد ساءته بمجاورتها، ويستخف بحقها استخفاف من لا يخف عليها محملها، ويقصر في الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها .. فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يمهله، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله عز وجل إلى سلطان غيره فيعالجه".

وهذه الكلمات على قصرها من ألذع الهجاء، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذي لا يعرف قدرها، بل إنه يعنف بها عنف عدو غاشم، وإنه ليتخف بحقوقها استخفاف من ثقل عليه النهوض بها وحملها، وهو لذلك كله يطرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذي يكفل لها البقاء، وهو لا يدري أنه مع طغيانه وبغيه على نعمه ربه سيلقي جزاءه، إنه يمهله، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه. والكلمات والعبارات مختارة بدقة. وله في الدعوة إلى يوم أنس من رسالة[٣]:

"لا عذر في التخلف عنك، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك، فإن كنت سامحت على العذر قبل الاعتذار، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار، فلا زلت على كل خير دليلا، وإليه داعيا، وبه آمراً، وقد

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٤/٢٨٩.

[٢] صبح الأعشى القلقشندي ٩/٢١٩.

[٣] زهر الآداب ٣/٣٦١.

التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قطراً (دموعاً منهمزة) وهاج شوقاً، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك".

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه، ويعتذر بكثرة أعماله، ويتلطف معه، فيجعله قبل عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره. وانظر كيف عبر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قطراً. ودائماً لا تفوته الكلمة الموجز المعبرة أدق تعبير وأقواه. ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعثرت في حبال غيره[١]:

"أصبحت- والله- من أمر فضل في غرور، أخادع نفسي بتكذيب العيان، وأمنيها ما قد حيل دونه. والله إن إرسالي إليها- بعد ما قد لاح من تغيرها- لذل، وإن عدولي عنها- وفي أمرها شبهة- لعجز، وإن تصري عنها لمن دواعي التلف".

والقطعة محبوكة العبارات، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغير فضل عليه، متصوراً ثلاثة مواقف، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان، وهو إن انصرف عنها لا يزال مشتبهاً في أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدى به إلى التلف والهلاك. ودائماً نحس عنده دقة التعبير، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها. وله فصول بديعة تدور في كتب الأدب من مثل قوله في رسالة لصديق مصوراً مودته[٢]:

"إني أهديت مودتي إليك رغبة، ورضيت بالقبول منك مثوبة، فصرت بقبولها قاضياً لحق، ومالكاً لرق، وصرت- بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة- مرتهن اللسان بالرضا، واليدين بالوفا".

وانظر تصويره لمودته بأنها هدية لصاحبه، ودائماً ترد الهدايا، وهو لا يريد لها رداً ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد، جعل رقة في يديك وحريته طوع مشيئتك، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه في إخوته وصداقته. وهو يصور نفسه، وقد قام الهدية وتخير جزاءها مودة صديقة بل قفبوله لها، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستبعدة له. ولا تعرف بالضبط السنة التي توفى فيها سعيد، وأكبر الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦- ٢٧٨ هـ). ولعل في كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية في الرسائل الإخوانية والديوانية، فقد كان يعني أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهي التقطيع أحياناً إلى السجع، كما كان يعني بمعانيه وجلب ما يروق منها بدقته وطرافته.

---

[١] الأغاني (طبعة الساسي) ٢١/١١٩.

[٢] جمهرة رسائل العرب ٤/٢٩٧.

٥

أبو العباس بن ثوابة[١]

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى سنة ٢٧٧ للهجرة، وهو من أسرة أصلها مسيحي، عملت في دواوين الخلافة، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع. وأول من لمع اسمه منهم ممد بن ثوابة وكان يعمل في دواوين الدولة، وهو من ممدوحي البحتري، وكان ابنه جعفر يتولى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة، وسق أن عرضنا له في الفصل الماضي وقلنا إنه كان يسجع في رسائله الديوانية، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رياسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة. ويبدو أن السجع نما على أيدي هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره في الكتابتين الديوانية والإخوانية.

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبي العباس بن ثوابة، ولكن لا بد أن أباه وكان يشتغل في الدواوين أخذ مبكراً بالدرس والتحصيل، بادئاً معه من الكتاب، ومنتهياً به إلى حلقات العلماء في المساجد، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقاً فيها منذ عصر المهتدي[٢] (٢٥٥- ٢٥٦هـ)، وما زال نجمه في صعود حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد. وكانت لا تعقد إلا لمن أثبت كفاءته وعرفت بلاغته. وكان طبيعياً أن تكثر الصلات والمودات بينه وبين سعيد ابن حميد وغيره من كتاب عصره وشعرائه، ولابن الرومي فيه مدائح مختلفة، وكذلك للبحتري ويروي له توقيع وقع به في قصيدة له: استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو: "مقضية لو أتلفت المال، وأذهبت الحال، فقل- رعاك الله- ما شئت منبسطاً، وثق بما أنا عليه لك مغتبطاً، إن شاء الله تعالى". ويبدو أنه ظل على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥، وكان بينهما وحشة شديدة. ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه، ثم قال أيها الوزير: (لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين)، فقال له ابن بلبل: (لا تثريب عليكم) يا أبا العباس، ورفع مجلسه، غير أنه صرف عن الديوان وولاه نواحي بابل وسواد بغداد الغربي، فضاعف- وزاد- في الدعاء له- ويقال إنه ظل على تلك النواحي حتى وفاته.

---

[١] أنظر في أبي العباس بن ثوابة الفهرست ص ١٩٣ ومعجم الأدباء ١٤٤/٤ وجمهرة رسائل العرب ٣٢٣/٤ وما بعدها.

[٢] الغاني (طبعة الساسي) ٦٩/٢٠.

وأبو العباس أحمد كتاب العصر وبلغائه، وفي أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف، ويضرب الرواة لذلك مثلاً بعبارات له شديدة الغرابة، وأنه قال يوماً وقد استمع إلى حاجم: على بماء الورد أغسل فمي من كلا الحاجم. وأثر له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولي عهد المعتمد، ومر بنا أنه كان الخليفة الحقيقي طوال عصر أخيه، ولذلك كانت العهود على الولاة تصدر عنه، والعهد يبتدئ على هذا النمط[١]:

"هذا ما عهد به أبو أحمد لموفق بالله ولي عهد المسلمين إلى فلان حين ولاه الصلاة بأهل كورة الري ودنباوند ونواحيها، والحرب والأحداث فيهما. أمره بتقوى الله وطاعتها، وخشيته ومراقبته، في سره وعلانيته، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتق الله يقه، ومن يعتصم به يهده، ومن يطعه يتوله ويكفه (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ). وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض إليه، والاعتماد عليه، وأن يجعل كتاب الله عز وجل له إماماً، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مثالاً، فإن فيهما دلالة وتبياناً، وضياء ونوراً وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. وأمره أن يكون أول ما يعني به ويقدمه، ويراعيه ويؤثره، إقامة الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فرض الله فيها، إذ كانت عماد الدين، وأفضل ما تقرب به المؤمنون، وكان من أضاعها وقصر في واجبها، أشد تضييعاً لما سواها من حقوق الله عز وجل وفرائضه ودينه وشرائعه (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ). وأمره أن يلهم نفسه في كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره، ذكر الله جل ثناؤه، وألا يمضي أمراً إلا بعد استخارة الله عز وجل فيه، واستقصائه في ذلك بالذي هو له أرضى، وعنده أزكى، فإن العاقبة للتقوى، وإن أفضل الأمور خيرها عاقبة، وأحمدها مغبة، وما التوفيق إلا بالله، عليه يتوكل المتوكلون".

وقد استهل أبو العباس بن ثوابة العهد– كما يلاحظ القارئ– بالسجع، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثماني صفحات، فانصرف عنه مكتفياً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التي تتألف منها. وقد حاول أن ينهي كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه. وهو يمضي في العهد، فيأمر الوالي بحسن سياسته لهل عمله وأخذه لهم بالعدل والنصفة وإحقاق الحقوق، وأن يتخذ مساعديه في إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية، وأن يقدم أهل الفضل والصلاح والمشايعين

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٣٣٤/٤.

للدولة ويتخذ منهم مستشاريه، وأن يقيم الحدود متبعاً لما جاء في محكم التنزيل والسنة النبوية وما نص عليه الفقهاء، وأن يجعل دبر أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط، فإن لكل شيء قدراً، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته، وخاصة التي تقابل الأعداء فيسد خللها ويرتق فتقها، ويعاجل أي متسرع للفتنة أو الثورة بها. ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زاداً ولا عتاداً من الأسلحة إلى ديار العدو، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر، وهو يدل على يقظة الدولة. ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين، حتى يدر الخراج ويكثر حلابه، كما يأمره أن يتفقد من في السجون، ويكثر عرضهم والنظر في أمورهم والأسباب التي حبسوا بها، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم. ومن أطرف ما في العهد أن نراه يأمر الوالي بالأمانة في ولايته، وألا يأخذ أي ضرائب استثنائية من الرعية، لا بحجة الضيافة ولا بأي حجة أخرى. ومر بنا في الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصاً وقطاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أي رحمة أو شفقة، وكأن أبا العباس بن ثوابة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالي إنه:

"أمره ألا يقسم على أهل عمله قسمة بسبب نزل (ضيافة) ولا غيره، مما كان شرار العمال يوظفونه ويقسمونه على أهل ا'مالهم، ويتجنب الطعم (وجوه المكاسب) الشائنة، والمكاسب الرديئة. ويحذر أن يعرض لشيء منها، أو يطلقه لحد من كفاته (معاونيه) فيرد عليه من النكير ما هو حرى بتوقيه والتصون عنه". ويعرض في العهد لوظيفة الحسبة. وكان المحتسب يراقب الأسعار في الأسواق، ويقوم فيها مقام الشرطة والقاضي معاً ولذلك كان يختار من رجال الفقه والشريعة. فهو يحقق ويحكم ويدين ويرد عن المظلوم الظلم، ويراجع المكاييل والموازين، ويعاقب الغاش المخادع، وفي ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه:

"وأمره أن يتخير للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) في عمله من يعرف بالقصد في مذهبه، والستر في نفسه، والعفاف في طعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلده، ويستكفي القيام به، ويتقدم إليه في أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التي يقع عمله في الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورفع الغش، وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين أو تحيف (تنقص) لهم، وتعيير (قياس) المكاييل والموازين في سائر عمله، وإقامتها على الوفاء والعدل، وختمها بالرصاص، وحمل المبتاعين فيها وغيرهم عليها، والإشراف على ما يرسمه، ويتقدم بامتثاله في سائر وجوه الحسبة، حتى لا يخالف شيء منه على غيره ومعاقبة من

عسى أن يقدم على مخالفته فيه، يردعه، ويعظ من سواه، فإن الله عز وجل يقول: (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)". وهي قطعة طريفة في العهد، إذ تصور أعمال رجال الحسبة في العصر ما كان يشترط فيهم من معرفة بالشريعة وحدودها وأن يكونوا من التقاة أهل الستر والعفاف حتى لا يتحولوا إلى ذئاب في الأسواق فارضين على التجار وأصحاب الصناعات هدايا ورشاوي، من شأنها أن تفسد الذمم فساداً لا حد له، وبالتالي تفسد الأسعار والبيع والشراء.

ويصور مهمة المحتسب بأنها تصحيح المعاملات بين الناس ورفع الغش والخداع والمراجعة الدائمة لعيار المكاييل والموازين وختم الدقيق منها ختماً يدل على صلاحه، بحيث لا يستعمل سوى الموازين والمكاييل المختومة التي أقرها المحتسب، وكل ما حدثته نفسه بمخالفة ذلك ينبغي أن ينزل به المحتسب عقاباً رادعاً. وقد كتب العهد بدون سجع، وكان ابن ثوابة يفزع إلى السجع كثيراً، ولعله لاحظ أنه موجه للرعية كما جاء في نهايته، وأنه ينبغي لذلك أن يكون في لغة واضحة لا يحجب السجع بعض معانيها، ولا يحول بين العوام وتبين ما فيها.

وأثرت له رسائل إخوانية كتب ببعضها إلى نفر من الوزراء، وهو فيها تارة يكثر من السجع وتارة يتخفف منه بل قد يهمله تماماً على نحو ما نجد في الرسالة التالية التي كتب بها إلى الوزير إسماعيل بن بلبل يهنئه بمصاهرة الموفق ولي عهد المعتمد وفيها يقول[1]:

"بلغني للوزير– أيده الله– نعمة زاد شكرها على مقادير الشكر، كما أربى مقدارها على مقادير النعمة، فكان مثلها قول إبراهيم بن العباس الصولي:

بنوك– غدا– آل النبي ووارثوا لـ خلافة والحاوون كسرى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها موهبة ترتبط ما قبلها، وتنتظم ما بعدها، وتصل جلال الشرف، حتى يكون الوزير– أعزه الله– على سادة الوزراء موفياً، ولجميل العادة مستحقاً، ولمحمود العاقبة مستوجباً، وأن يلبس أولياءه من هذه الحلل الغالية ما يكون لهم ذكراً باقياً وشرفاً مخلداً".

والرسالة تخلو من السجع، ولكنها تحوى الكثير من المهارة الفنية، وخاصة في تقطيع الجمل وتقابلها واستيفاء معانيها، على نحو ما ينضح في العبارتين الأوليين منها، واقتبس فيها بيتاً

---

[1] معجم الدباء ١٥٧/٤.

لإبراهيم بن العباس الصولي شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤديه من معان. ويعقبه بعبارات مقطعة متقابلة، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدي، فقد كان يعرف كيف يضم اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير، بحيث تتماسك الكلمات وكأنها في بناء متراص. وأشرنا في الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر في رسالته العذارء التي وجه بها إلى الكتاب أن يقولوا في رسائلهم: "جعلت فداك" وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشعر، ويقول إن كتاب العسكر (الجيش) وعوامهم أولعوا بهذه اللفظة، حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير. وكأنما صدر أبو العباس بن ثوابة عن روح هذا النقد، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم: "جعلت فداك" فعاتبه عبيد الله، ولم يكد يسمع عتابه، حتى كتب إليه برسالة ثانية ن يصور فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف، وفيها يقول[١]:

"اللهل يعلم- وكفى به عليماً- لقد أردت مكاتبك بالتفدية، فرأيت عيباً أن أفديك بنفس لابد لها من الفناء، ولا سبيل لها إلى البقاء، ومن أظهر لك شيئاً يضمر خلافه فقد غش، والأمر إذا كانت الضرورة توجبه، وتحقق أنه ملك لا يتحقق، وعطاء لا يتحصل، لم يجز أن يخاطب به مثلك، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم، ودليلاً من دلالات الاجتهاد، وطريقاً من طرق التقرب".

وقد التمس أبو العباس بن ثوابة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبي في العصر من رقة بالغة عند بعض الكتاب، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية، وهو إفراط في الحس والشعور والرقة والدماثة. وبذلك نفهم عبارة أبي العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم، فقال: على بماء الورد أغسل فمي من كلام الحاجم، وكأن سماع الكلام الذي لا يعجبه لا يؤذي أذنه فحسب، بل يؤذي فمه، وإنه لإيذاء غريب، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبي العباس، فقد كان يتكلف الدماثة والحس المفرط والشعور الحاد. وله من فصل في رسالة كب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان، يقول فيه[٢]:

"لم يؤت الوزير من عدم فضيلة، ولم أوت من عدم وسيلة، وغلة (حرارة) الصادي (العطشان) تأبى له انتظار الوارد، وتعجل عن تأمل ما بين الغدير والوادي، ولم أزل أترقب أن يخطرني بباله، ترقب الصائم لفطره، وأنتظره انتظار الساري لفجره، إلى أن برح (انكشف) الخفاء وكشف

---

[١] زهر لآداب ١٦/٣ وجمهرة رسائل العرب ٣٣٢/٤.

[٢] معجم الأدباء ١٤٧/٤.

الغطاء، وشمت الأعداء، وإن في تخلفي وتقدم المقصرين لآية للمتوسمين، والحمد لله رب العالمين".

والفصل مكتوب بكل دقة، فالوزير لم ينسه نقصاً فيه إذا اكتملت فضائله وأوفت على الغاية، وهو لم يؤت من نقص، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصى والداني، وإذن فليبحث عن علة، ويقول إن الحرابة المشتعلة في صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه، وتعجله عن النظر فيما بين الغدير والوادي من خيرات ومياه وطيبات. ويمضي فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والساري بالليل الداجي لفجره، غير أن أضواء الصباح العباس تفلتت من الأفق، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته، وشمت العداء. وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتاباً رفيقاً وهو يختمه بقوله إنه أصبح في عداد المتخلفين، بينما تقدمت في رحاب الوزير كثرة من المقصرين الذين لا يبلغون شأوه، ويقول إن في ذلك لآية للناظرين، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذي لا يحمد في مكروه سواه. والعبارات في الفصل متسقة اتساقاً وثيقاً، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق، ونحس انسجاماً بين الكلمات منذ العبارتين الأوليين، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعتين.

ويضيف إلى ذلك في العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة، حتى إذ سواهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معاً. وبذلك يبلغ أبو العباس بن ثوابة صاحب الدماثة المفرطة والرقة المتناهية كل ما كان ينتظر له من ت أنق في التعبير الأدبي، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص، زخرف يحمل كل ما يريد من وشي السجع ووشي الصور النادرة. وله من جواب عن تعزية[1]:

"وصل كتابك بالتعزية عن أخي، وقد جلست مصيبتي به وعظمت، فنكأت (جرحت) القلب، وهدت الركن، وأذهبت القوة، ونغصت العيش، وأزرت بالأمل. فعند الله احتسبه، وإياه اسأل تفضلاً عليه، وصفحاً عنه، وتغمداً (غفراناً) لذنوبه، وصبراً على حادث قضائه فيه، واستعداداً للموت وتأهباً له، فإنه مصرع لا بد منه، ومورد لا محيص عنه".

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات، فقد صور حزنه على أخيه بجمل متناسقة، ولا شك في أنه بذل جهداً عنيفاً في اجتلابها ووضعها متلاحقة، وكل جملة تضيف خطاً على لوحة الحزن السوداء، فعبارة تحمل جرح القلب، وثانية تحمل انهداد الركن، وثالثة تحمل ذهاب القوة، ورابعة تحمل تنغص العيش، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل. ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه، والغفران لذنوبه، ثلاث دعوات ويقابلا لنفسه ثلاث أيضاً: الصبر على حادث القضاء، والاستعداد للموت بالعمل الصالح،

---

[1] جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣.

والتأهب له. وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها في عبارتها، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها. ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحتري هجا نبي ثوابة في قصيدة له فبعث غليه أبو العباس يرتضاه بهدية نفيسة فردها وقال لحاملها قل لأبي العباس: قد أسلفتك إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم، فكتب إليه

"أما الإساءة فمغفورة، والمعذورة مشكورة، والحسنات يذهبن السيئات، وما يأسو (يداوي) جراحك مثل يدك، وقد رددت إليك ما رددته علي، وأضعفته، فإن تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا، وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا".

فقبل البحتري ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه. والكلمات التي كتب بها إلى البحتري تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس، وجعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات، فإذا هي تأخذ صورة سجع خالص، وهو سجع حافل بالعذوبة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة في القرن الثالث الهجري لشيوع السجع وانتشاره.

خاتمة

هذا الجزء خاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند والأتراك وقوادهم، وكانوا بدواً رحلاً، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة، ولا بفنون ولا بآداب، ولا ينظم ملك وسياسة، وكانوا قد قبضوا عل زمام الحكم في أواخر العصر السابق، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر. وعبثاً حاول المتوكل التخلص منهم، ولكنهم ظفروا به وقتلوه، وولوا مكانه المنتصر، ومضوا يولون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر، فكانوا يسلمون أعينهم. وطبيعي أن تتدهور الخلافة، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم، غذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تنفق فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادي والحربي. وفسد الحكم فساداً لا حد له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة، وتؤخذ منهم الملايين ويصادرون ولا رادع ولا زاجر، والشعب قاسي كل صنوف البؤس والشقاء. وتشب ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً، وتشب ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويقضي عليها في العراق والشام، ولكن تظل منها شعبة في البحرين، تهدد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر. وتكاثرت الأحداث، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه. وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آيبة، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان، وثار الصفاريون في سجستان وكرماس وفارس، واستسلموا آخر الأمر. ولا نصل إلى أواخر العصر، حتى يغلب كثير من الحكام على ولايتهم، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء الحكم التركي معه، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد، وصار لهم السلطان فيها والصولجان.

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات: طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم، وهي طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورءوس التجار. وطبقة وسطى، معيشتها بين الترف والشظف وهي طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطي الدل من التجار والصناع. وطبقة دنيا، معيشتها بؤس وضنك وإعسار، وهي الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق. ومن يطلع على ما كان ينفق حينئذ في قصور الخلفاء

والوزراء يخيل إليه أنه يقرأ في أقاصيص ألف ليلة وليلة، إذ يبلغ ما كان ينفق على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهرياً، أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحياناً مليونين ونصفاً، والقصور الباذخة تشيد، والشعب يكدح ويتصبب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار، ولكل وزير حرسه الذي يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف. وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تبتز منها الأموال بكل الطرق، واضطر كثيرون منها على أن يصبحوا قرادين وحوائين ومتسولين بطرق شتى. وكان أهل الذمة يعاملون معاملة سمحة، وكان كثير من النصارى يعملون في البيمارستانات أطباء وفي الدواوين كتاباً. وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر. وكان الرجال والنساء جميعاً يبالغون في الأناقة: الناقة في الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر. وتفننوا في المطاعم إلى غير حد كما تفننوا في الحلواء وفي الشراب. وعنا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهي. وكان الرقيق– وخاصة رقيق الجواري– يملأ الدور والقصور، وكانت النخاسة قائمة على ساق، وكانت دورها في الكرخ وغير الكرخ تكتظ بالقيان. ولم يعن المجتمع العباسي بفن كما عني بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان: محافظة ومجددة، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً. واثر الجواري حينئذ آثاراً كبيرة في شيوع الظرف والرقة واللطف. وظلت موجة المجون والشعوبية الزندقة حادة في العصر، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلئ بحانات الخمر، وكان الناس يقصفون ويمرحون في أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس. وكانت نار الشعوبية لا تزال مستقدة، وصب عليها الجاحظ وبان قتيبة مياها كادت تطفئها إلا قليلاً، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد والزندقة، ومن رءوس الزنادقة الملحدين في العصر ابن الراوندي ومحمد بن زكريا الرازي. ولم يكن هذا كله الصوت القوي في الأمة، إنما كان الصوت القوي هو الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع لوعاظه والالتفاف حول عباده ونساكه، وهيأ ذلك لاتساع حركة التصوف، وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثاني الهجري ولكنها تأخذ حقاً في الازدهار بهذا العصر، إذ أتيح لها أعلام أرسوها، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة.

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة، والطلاب يفدون عليها من كل صوب متحولين من حلقة إلي حلقة ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية. وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين التي كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما ترجم من علوم الأوائل وثقافات اليونان والفرس والهند. وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان

عاماً مثل خزانة الحكمة، ومنها ما كان خاصاً لبعض الأفراد. وتروي أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم في سبيله وانقضاضهم- حتى العامة منهم- عليه انقضاض الأسد على فريسته، ولعل ذلك ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب، حتى يتزود منها بطرق يسيرة سهلة. ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً، ويتطور النقل من النقل الحرفي إلى نقل معاني الفقر بحيث تصبح صياغة الكتب المترجمة ناصعة شديدة النصوع. ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة واسعة، وليس ذلك فحسب، فقد اصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندي في أوائل العصر والفارابي في أواخره. وتزدهر العلوم اللغوية والنحوي، فتشرح النصوص القديمة شروحاً موسعة، وتوضع بعض المعاجم، وينشط تلامذة المدرستين البصرية والكوفية في النحو، وتنشأ المدرسة البغدادية. وتكثر حينئذ المباحث البلاغية في بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين، ويتم الغلب للأخيرين، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف "البديع" ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة، ويصدر قدامة كتابه "نقد الشعر". وتنشط الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وفي تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء. وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القراء السعة المشهورين علي العالم العربي الذي ارتضي ما أدي في ذلك من جهد علمي خصب. ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية، وبالمثل نهض تدوين الحديث، ووضعت فيه كتب الصحاح الستة. وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهري الذي كتب له الذيوع في الأندلس والمغرب وخاصة في عصر دولة الموحدين. وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو على الجبائي وابنه أبو هاشم، وتفرع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعرى الذي يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة، والذي كتب له الانتشار في العالم الإسلامي.

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره، ويظل اللغويون يقدمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه الوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، ودعم هذا الوقوف مباحث النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربي. وأخذت تنشأ عربية مولدة ولكنها لم تجر على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئاً من الضيم، إذ كانوا يتمثلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً. وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد في الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية، وحتى البحتري الذي اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربي يمسه حظ من الثقافات

المعاصرة. وكان حظ ابن الرومي وافراً، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشيء وذمه. وظل الشعراء يبالغون في مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية، وسجلوا في مدائحهم البطولات الحربية، واحتفظوا فيها أحياناً بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة. وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء، واسعوا في وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها. ونشط الهجاء، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير، ونفذ فيه ابن الرومي إلى نوع جديد من الهجاء الساخر. وظل الفخر نشطاً، واحتدم الرثاء، وافجعوا على أبنائهم تفجعاً مريراً، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج. ولابن العلاف مرثية في هر تعد من عيون الرثاء ودرره. وصوروا في عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودماثتهم. وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادي الماجن،ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعاني والأخيلة،ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم. ونشط شعر الزهد نشاطاً واسعاً. وأكثروا من التهاني والتراسل بالأشعار مع الهدايا، وللبحتري وصف رائع لإيوان كسري. ولهم أشعار كثيرة في وصف قصور الخلفاء وبذخهم في البناء، وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهي ،وفسحوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمي على نحو ما نلاحظ عند ابن الجهم وابن المعتز في نظمهما للتاريخ، وعند ابن دريد في نظمه للمعارف اللغوية.

وأعلام الشعراء في العصر على بن الجهم والبحتاري وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري، فأما ابن الجهم فقرشي الأصل ولد ونشأ ببغداد، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، فمدح المعتصم والواثق ويتخذه المتوكل جليساً ونديماً بينما يدبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل في الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى، فتكاثر خصومه، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عاماً، ثم نفاه على خراسان. وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك في نضال البيزنطيين، ولكنه قتل دون غايته. وأروع أشعاره ما نظمه في الاستعطاف وليالي الأنس بالكرخ، وأكثرها توهجاً تصويره لصلابة نفسه حين سجن وصلى نار النفي، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والمحن أن تمس نفسه.

وكان البحتري عربياً شامياً من طيء، سال الشعر على لسانه مبكراً، وفي حلب تعرف بفتاة تسمى علوة، ظلت لا تبرح ذاكرته، ولقي في حمص أبا تمام حامل لواء الشعر في عصره غير مدافع، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ، فشجعه، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد في شعره. وقد عكف البحتري على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله. وقدمه أبو تمام إلى ممدوحيه، ونزل سامراء واصبح شاعر البلاط الرسمي ومن عهد المتوكل إلى عهد المعتمد. ولم

يكد يترك وزيراً ولا موظفاً كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه. وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة في عصره، ويعد بحق أستاذ الفن الموسيقي في الشعر العربي، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه، وأكثر شعره في المديح، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صور معركة بحرية بقيادته دمر فيها الأسطول البيزنطي. ولم يكن بارعاً في الهجاء، وله فخر ضعيف. ومراثيه قوية، وله غزل يترقرق فيه الوجد كما يترقرق الماء في الغصن، وكان ماهراً في وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة.

وكان ابن الروم يوناني الأصل ولد ونشأ ببغداد، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الخصب ،وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير، وتروي عنه فيه أقاصيص كثيرة. وكان يتشيع، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورون عنه، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تغلق دونه، وويل لمن كان يهجوه. وتتردد في ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجواري والقيان، واستطاع بملكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد في الهجاء كما أسلفنا، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات، وعتابه لأبي القاسم التوزي وحواره مع هناته من أطراف ما نظمه شعراء العربية، وله في الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يشغف بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة، وهو يكثر من وصف مجالس الأنس وألوان الطعام، وله أشعار بديعة في الزهد.

وكل الشعراء السالفين من أبناء الشعب، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل في الخلافة نحو ثلاثة أعوام، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة، وأعادهما المعتمد إلى سامراء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثاقافات، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية، وله أصوات حملتها العصور بعده، وله مدائح مختلفة في عميد المعتمد والموفق وفي المعتضد وابنه المكتفي. وكانت مأساته في أبيه وجده تصرفه عن التفكير في الخلافة، ولكن حدث أن تولاها المقتدر وهو غلام، وتجمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خلعه والبيعة لابن المعتز، ويكون في ذلك حتفه. وآثار بيئته المترفة واضحة في أشعاره، وخير مدائحه مراثيه ما نظمه في ابن عمه وصديقه المعتضد، وله فخر كثير وفيه يلوح من حين إلى حين في وجوه العلويين، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة. وله أشعار كثيرة في الغزل واللهو والخمر وذم الصبوح، وتكثر في شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته.

وكان الصنوبري من أهل أنطاكية، ولكنه نشأ وتربى في حلب، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردد فيها على الموصل. وأكثر من المديح، وكان شيعياً، وهو لا يغلو في تشيعه، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذي ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه. وفي أشعاره عناية واضحة بصناعتها ونثر فنون البديع فيها، وله مدائح كثيرة، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت

وتفجعه على ابنته ليلى، وله غزل في فتاة مسيحية. ويكثر من وصف الخمر، وله أشعار في الزهد، واهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضرب المثل بروضياته، وله غناء كثير بالثلجيات، ويعد فاتح هذا الباب في العربية، وله أشعار بديعة في وصف الديك والصيد والهر والجرذان، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة.

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء في العصر، وفي مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين، غذ كانت أموال الدولة بأيديهم، فكثر مداحهم حتى بين الشيعة، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته في ميراث الخلافة، ومن أهمهم مروان بن أبي الجنوب وعلي بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي، أما مروان فكان يسير سيرة جده مروان بن أبي حفصة في الطعن على البيت العلوي، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه، وكان يعني مثل جده بصقل أشعاره. وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسي، وهو مثال للنديم المثقف ثقافة واسعة، وله شعر كثير في مديح الخلفاء والوزراء في تصوير سمو نفسه. وكان أبو بكر الصولي التركي الأصلي من بيت علم وكتابه، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد، وخير مدائحه ما نظمه في الخليفة الراضي، وله غزل رقيق كثير. وكان شعراء البيت العلوي يقفون مدافعين منافحين عنه، وأهمهم في العصر محمد بن صالح العلوي والحماني والمفجع البصري، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز، وزج به المتوكل في غياهب السجون، ثم عفا وعاش في سامراء يمدحه، وله أشعار ريفة في زوجه وفي بعض أصدقائه. وكان الحماني نقيب العلويين في الكوفة وله مراث كثيرة ليحيى بن عمر العلوي يبكيه فيها بكاء حاراً. وكان المفجع شيعياً إمامياً، وكان يكثر من مديح علي وأبنائه. وكثرت الثورات السياسية ف العصر، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور في كتب التاريخ والأدب، ومثله يحيى بن زكرويه القرمطي الثائر بالشام وأبو طاهخر الجنابي صاحب الأحساء والبحرين. وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستل غضبه بشعره فيعفو عنه. وأما حفيد أبي دلف فثار بأعمال الجبل بين همذان وأصفهان، وله أشعار مختلفة يتهدد بها قواد المعتضد وينذرهم– إن هاجموه– إنذارات خطيرة. ويكثر كثرة مفرطة شعراء الوزراء والولاة والقواد، وفي مقدمتهم أبو علي البصير وابن أبي طاهر وابن درين، ولأولهم مدائح كثيرة في الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة في الغزل وفقد بصره وشيخوخته. ولابن أبي طاهر مدائح كثيرة في الوزراء، وله أهاج لاذعة. واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال وإلى الأهواز، وخاصة بمقصورته فيه وقد شرحت مراراً وتكراراً. وخمد في العصر الهجاء القبلي، وظل الهجاء الشخصي محتدماً، ومن أكبر الهجائين في العصر الصيمري، وخبره مع المتوكل والبحتري مشهور. وأشد

إيلاماً ووخزاً منه في الهجاء الحمدوني، وقد دارت على كل لسان في عصره أهاجيه في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد. وهجاء العصر غير منازع ابن بسام، وله في أبيه أهاج كثيرة، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً في عصره دون أن يكويه بميسم هجائه.

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته، ويظل الغزل العفيف حياً حياة خصبة بجوار الغزل المادي الصريح،ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط، وكثيرات من الجواري في العصر كن ينظمنه ويتقن نظمه، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهري وفضل الشاعرة وكان خالد كاتباً في الدواوين، وله رقائق غزلية كثيرة يصور فيها حباً ظامئاً لا يروي أبداً، أما محمد بن داود فكان فقهياً ظاهرياً وغزله أفلاطون نقي طاهر، وكانت فضل من مولدات البصرة، وهي أشعر الجواري في عصرها، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد. وكان كثير من الشعراء ينغمس في اللهو والمجون، وكانوا يترافقون في الديارات وفي الحانات وفي دور النخاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجوناً الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البرجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع. ونادم الحسين غير خليفة ،وهو فارسي الأصل، وتشيع في غزلياته وخمرياته عذوبة مفرطة، ولا يلحقه أبو الشبل في تلك العذوبة ولا في خفة روحه. وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بين الربيع يسرف في الخلاعة والمجون، وله أشعار في نصرانية هام بها هياماً شديداً، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى. وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراء الزهد والتصوف، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التي كانت تعيش على شظف العيش وتعرف بها وتتقيه في السر والعلن، ويتغنى كثيرون بأشعار زاهدة، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم في المحبة الإلهية والفناء في الذات العلية. ويظهر الحلاج الذي تمثل في نفسه الحقيقة الإلهية، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح افلهي عل نحو ما يصور ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد، وهو أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعاً تؤدي إلى الله جل جلاله. وكان الشبلي الصوفي لا يغلو غلوه، إذ كان تصوفه سنياً، مما جعله ينحي عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات، وكان يؤمن بفكرة الفناء في الذات الإلهية. ويلقانا في العصر شعراء كثيرون ينظمون في الطرد والصيد، وكان لهواً ومتاعاً للخلفاء والوزراء وعلية القوم، وكانوا يخرجون إليه في مواكب ومعهم الشعراء وكادوزا لا يتركون ضارياً من ضواري الصيد ولا جارحاً من جواره إلا نعتوه، كما نعتوا الصيد من حمر الوحش وأته وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز، وبالمثل نعتوا آلاته من النبل والسهام والفخاخ والشباك والبندق. ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقنص أبو العباس الناشئ، وكان من المعتزلة، وكان عالماً وناقداً كما كان شاعراً بارعاً، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره في

صنع كتابه المصايد والمطراد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه في الطرد والصيد، وله أشعار بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضاً في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلاً بصيده. ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية، وخاصة شعراء البؤس والمكدين وغيرهم ممن صوروا ضيق الحياة وما يجري فيها من ضنك شديد، وصور كثيرون التحامق في صور هزلية. ولا يباري جحظة البرمكي– الضارب على الطنبور– ف تصوير تعاسة الطبقة العامة، وكثيراً ما صب سياطه على الحكام الفاسدين. ويمثل الخبز أرزي هذه الطبقة فقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولغته حلوة خفيفة، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفاً شديداً.

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيماً، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة، وشاع الاستواء والتناسق فيما ترجم من آثار، وظهر الكندي أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة، وكان شاعراً ونائراً ممتازاً إذ كان يتمثل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلاً بارعاً. وأخذت بيئات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية، فكانت هناك بيئة محافظة مثلها اللغويون، وبيئة تفرط في التجديد مثلها المترجمون، وبيئة معتدلة مثلها المتكلمون، وهي التي كتب لها السداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وضع للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية. وأبلى اللغويون برء حسناً في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه "أدب الكاتب" الذي وضعه نبراساً للكتاب يهتدون به. وينصف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة. وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعاً لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه: "البرهان في وجوه البيان" ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأسطو، بل يحتكم أيضاً على كتابيه في المنطق والجدل. غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره أزوروا عن كتابه ومنهجه، وساد بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذي مثله الجاحظ في كتاباته خير تمثيل. وضعفت الخطابة في العصر، ولكن المواعظ لم تضعف، بل ازدادت اضطراماً على أيدي المتصوفة، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ،وتداولها الناس بحيث أصبحت ضرباً من ضروب الأدب الشعبي حينئذ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة من كراماتهم وأخبارهم. وليس ذلك فحسب، فإن بعض المتصوفة كتب في تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحظ في كتاب الطواسين للحلاج. وكثرت المناظرات في العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء، ومناظرة الحسن بن عبد الله السيرافي ومتى بن يونس في النحو والمنطق مشهورة، وبالمثل مناظرات اللغويين. وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليعنون كثير من الكتب باسم الرد أو النقض وشاعت هذه الروح في قصص وأخبار جمعت ونسقت في كتابي المحاسن والأضداد والمحاسن

والمساوي، وهما كتابان نفيسان، تلتقي فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصيصة كثيرة من الفرس والهند واليونان. وطبيعي أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة في العصر فقد كانت الدواوين تجذب إلها كتاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر. ونبغ بعض الولاة في كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر، ومن كتابها النابهين لعهد المهتدي سعيد بن عبد الملك. وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة في عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهي الكتاب. ويشيع السجع في الرسائل الديوانية لعصر المقتدر، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وشيه وزخارفه. ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه، ويشبع فيها السجع مبكراً، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً، منها رسالة طويلة لأبي على البصير كلها هجاء مرير. وكان أبو العيناء يسجع في رسائل الشخصية. وكان ابن مكرم لا يشيع السجع في رسائله، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء في اصطفاء اللفظ أو فيما يوشيها به من زخرف البديع. وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع في رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبي طاهر، ومثله ابن المعتز. وتنشط كتابه الرسائل الأدبية، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج، على حين نجد ابن المعتز في رسالة طريفة يمدح فيها سامراء ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه. وكأن ذلك كله كان إرهاصاً بأن السجع سيعم مع أواخر القرن في جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانيه.

وأعلام الكتاب في العصر إبراهيم بن العباس الصولي والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حميد وأبو العباس بن ثوابه. وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الدب مبكرة، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل، وظل يعمل في دواوين الدولة وولايتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه، وعفا عنه الواثق، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا، فقلده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد. وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبري، وهو يصور عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط، وقد يضيف إلى ذلك أحياناً اجتلاب بعض أسجاع. وفي تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة. وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة في الصوت والجرس والأداء، كما كان يعني أشد العناية بمعانيه، حتى تروق كتاباته اللسان والجنان، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعاً خالصاً.

والجاحظ أكبر كتاب العصر، بل أكبر كتاب العربية قاطبة، وقد نشأ بالبصرة وتمثل كل ما كان فيها من معارف، وهو معتزلي كبير بل صاحب مذهب اعتزالي قائم بنفسه سمي الجاحظية

نسبة إليه. وهو لا يباري في وضوح كتاباته وقدرته على التوليد في المعاني، واستنباط خفياتها ودقائقها. وقد صور في أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا. وكان يعني بصياغته عناية كاملة، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذي ابتكره، ونقصد أسلوب الازدواج، وحقاً نجد له مقدمات عند غيره، ولكنه هو الذي استمسك به أوشاعه في جميع آثاره، مع روح الدعابة التي يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمله القارئ. وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته: اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التي وضعها في أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف، وهي لا شك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه. واللون الثاني رسائله الشخصية وهي حافلة بمهارته في استنباط الأفكار وجمال أسلوبه. ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة. واللونان الرابع والخامس هما القصص والنوادر، إذ كان قصاصاً ممتازاً كما كان بارعاً في سرد النوادر.

وأكبر مؤلف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة، وهو بحكم ثقافته الدينية يبدو محافظاً في بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التي ألهب بها ظهور الشعوبيين، وأهم أسلحته الحربية التي اتخذها ضدهم في رأينا أنه حاول في كتابه "عيون الأخبار" المز بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسق به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب، فليس هناك ما يسمى فارسياً مستقلاً أو هندياً أو يونانياً أو إسلامياً أو عربيا، بل هي ثقافة واحدة، وهي ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التي صاغها ابن قتيبة، بحيث خفت صوت الشعوبية، فكل ما كانت تفتخر به على العرب اصبح من صميم العربية .وصاغ ابن قتيبة ذلك في أسلوب أدبي ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى. وقد يجري السجع على لسانه، ولكن دون أي تكلف، ويتشبه بالجاحظ أحياناً في نقل الواقع وفي خلط الجد بالهزل وإيراد بعض النوادر.

وسعيد بن حميد من أصل فارسي، عني أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل في عصر المستعين، وينص الطبري على بعض ما كتبه من رسائل ديوانيه، وكان يعني أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذي وصفناه، ونحس عنده دائماً رغبة قوية في النفوذ إلى أفكار مبتكرة، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الحيل العقلية يروع بطرافته، مع دقة التعبير وجماله.

وأبو العباس بن ثوابة من أسرة أصلها مسيحي، عملت في دواوين الدولة العباسية، وتميز هو من بين أفرادها في منتصف القرن الثالث الهجري إذ التحق بدواوين الدولة، وما زال يصعد في

مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل، وله عهد طريف إلى حد الولاة كتبه عن الموفق ،وهو يصور فساد الحكم حينئذ، كما يصور عمل صاحب الحسبة، وله رسائل إخوانية مختلفة، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفاً إليه مادة تصويرية بديعة.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية

الوجيز في تفسير القرآن الكريم

الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة

* سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة

الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

عالمية الإسلام

الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة

الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة

الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

معجزات القرآن

الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة

في تاريخ الأدب العربي

* العصر الجاهلي

الطبعة الحادية والعشرون ٤٣٦ صفحة

* العصر الإسلامي

الطبعة الثامنة عشر ٤٦١ صفحة

* العصر العباسي الأول

الطبعة الخامسة عشر ٥٧٦ صفحة

* العصر العباسي الثاني

الطبعة الثانية عشرة ٦٥٧ صفحة

* عصر الدول والإمارات

الجزيرة العربية . العراق . إيران الطبعة

في مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة

* الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

* التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة

* دراسات في الشعر العربي المعاصر.

الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة

* شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٨ صفحة

* الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثانية عشر ٣١٢ صفحة

* البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة

* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية

الطبعة الخامسة ، ٣٣٦ صفحة

البحث الأدبي:

طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره

الطبعة الثامنة، ٢٨٠ صفحة.

*الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.

الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة

الرابعة ٦٨٨ صفحة

عصر الدول والإمارات

الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

* عصر الدول والإمارات

(مصر) الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة.

* عصر الدول والإمارات

(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة

* عصر الدول والإمارات.

(ليبيا . تونس . صقلية)

الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة.

*عصر الدول والإمارات

الجزائر . المغرب الأقصى . موريتانيا . السودان

الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

* في التراث والشعر واللغة

الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة

* في الشعر والفكاهة في مصر

الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة

في الدراسات النقدية

في النقد الأدبي

الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة

فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨

في الأدب والنقد

الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة الحادية عشر ٣٨٠ صفحة

المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات

* النقد

الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة.

الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

* في التراث المحقق

* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد

تيسيرات لغوية

الطبعة الثانية ٢٠٠ صفحة

تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

* المقامة

الطبعة السابعة، ١٠٨ صفحات

الجزء الأول . الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني . الطبعة الرابعة، ٥٧٢صفحة

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

*الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر.

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

السيرة النبوية

* محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٠٨ صفحة

في سلسلة "اقرأ"	
* مع العقاد الطبعة الخامسة	* معي (١) الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي الطبعة الثانية	* معي (٢) الطبعة الأولى
* الفكاهة في مصر الطبعة الثالثة	القسم في القرآن الكريم الطبعة الأولى